الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٨٣ — الثلاثاء ٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣ — ٣٠ من مايو سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

صفحة			صفحة		
١	الجهود الحرة ونصيبها فى نهضتنا القومية	(***)	٧	تجربة مشروع الفاروق فى تعلم الكبار	للأستاذ محمد فريد أبو حديد
٣	قال قطب	للأستاذ سيد قطب ...	١١	رسائل حبيبة	للدكتورة سهير القلماوى ...
٣	وثم أخرى	» عدنان الحيدرى	١٤	نداء إلى الأدباء	للأستاذ محمد فريد أبو حديد
٣	مفرقات ، الذئب وابن عرس	... ...	١٥	الإنسان المعجز	» محمود السوقى ...
٤	التاج فى الأدب العربى ...	للأستاذ أحمد أمين بك ...	١٩	أوليس فى الإلياذة	للدكتور محمد مندور ...
٦	يا ليالى الهموم (قصيدة)	» على حلمى الوردى	٢٢	تسجيعات ينقدها أبو العلاء	للأستاذ محمود عزت عرفة

الجهود الحرة
ونصيبها فى نهضتنا القومية

الأصل فى الأمم الديمقراطية أن يترك الناس أحراراً فيما يقومون به من أعمال ، وأن تضيق دائرة تدخل الحكومة فى شئونهم حتى لا تمس حريتهم الخاصة ، ولا تقيد تصرفاتهم ؛ وفى ظل هذه الروح قامت النهضة الصناعية الكبيرة فى تلك الأمم ، وأسست الشركات المختلفة التى امتد نشاطها واتسعت دائرة أعمالها ، حتى صار لها من النفوذ والسلطان ما زاد فى قوة حكوماتها ومد فى سلطانها .

وظلت الحال كذلك حتى قامت الحكومات الدكتاتورية وأخضعت النظم الاقتصادية فى بلادها لإشرافها ، ووضعت يدها على كل موارد الأفراد والشركات جميعاً لتحقيق خططها المرسومة ، وهى إعداد المعدات الحربية التى كانت تبيّت استخدامها فى الحرب . ولما قامت الحرب بدأ التباين الشديد بين إنتاج الدول الدكتاتورية والدول الديمقراطية ؛ فالأولى بحكم استعدادها الميت ، وخططها المرسومة فى الإنتاج ، وتركيز موارد بلادها جميعاً فى يدها ، كانت أقدر من الثانية على الإنتاج ، وأرجح كفة فى الاستعداد ؛ ووجدت الأمم الديمقراطية أنها لا مفر لها لإيجاد التكافؤ بينها وبين خصومها من أن تصطنع فى مدة الحرب أسلوباً كأسلوبها ، وأمكن بالتعاون بين الحكومة ورجال الأعمال لديها أن تحقق إنتاجاً حربياً زاد على ما تنتجه الدول الدكتاتورية .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا التغيير الذى اقتضته الضرورة الحربية ، بل أحدث حركة فكرية كبيرة بدأت تعالج ما ينبغى أن تسير عليه الديمقراطية بعد الحرب ،

وهل تظل سائرة على أسلوبها القديم، ذلك الأسلوب الذي يدع الأمور تجري في أعنتها تبعاً لآراء الأفراد الخاصة، أو أن تزيد الحكومة في تدخلها وترسم الخطط العامة الكفيلة لسد حاجات البلاد.

فأنصار الحرية يرون أن الحرية وحدها هي الجو الصالح للتقدم، وأن التدخل الحكومي من شأنه أن يشل التفكير ويقيد حرية الابتكار، وأنه ينتهي بالأحوال إلى الجمود والتأخر؛ فالحكومة لا تجاري مغامرة الأفراد، وليست لأنظمتها مرونة الأعمال الخاصة، ولا يتحقق في مشروعاتها عامل المنافسة الذي هو سر ارتقاء كثير من المشروعات الخاصة. وأنصار تدخل الحكومة وقيامها بتنفيذ خطة مرسومة في الأمور الاقتصادية والاجتماعية، يرون أن ذلك وحده هو الوسيلة لتغليب الاعتبارات القومية في النشاط الاقتصادي والاجتماعي، لا ترك الأمور لأهواء أفراد وشركات تسيّرهم في تصرفاتهم مصالحهم الخاصة وحدها، وقد تتعارض هذه في بعض الأحوال مع مصلحة البلاد؛ وهو الكفيل بإيجاد التوازن في مشروعاتها الاقتصادية والإقدام على مشروعات جليلة النفع للبلاد، لا يهتم بها الأفراد لقلة ما يعود عليهم منها من الربح.

وهم يرون أن سياسة التدخل والخطة المرسومة أتت بالعجائب في روسيا وتركيا.

والقوم على اختلاف آرائهم مجمعون على الحرص على بقاء النظام الديمقراطي، ولكنهم يرون أنه أصبح بحاجة إلى تعديل يزيل عنه الجمود، ويجعله أداة فعالة في رقي البلاد ونهضتها.

ونحسبنا بعيدين من هذه المعركة، وإن كان لا مفر لنا من التأثر بما ستنتهي إليه؛ وظروفنا تختلف اختلافاً كبيراً عن الأمم الصناعية التي تقوم فيها هذه المشاكل؛ والجهود الحرة لدينا محدودة الدائرة، ولكنها مع هذا كله قابلة للنمو إذا توليناها بالرعاية والتشجيع

بل إن هذه الجهود على قلتها قد أدت وما زالت تؤدي خدمة كبيرة للبلاد، وفيما قام به المغفور له طلعت باشا حرب من تأسيس بنك مصر وشركاته وبخاصة شركة الغزل، أكبر مثل على مبلغ ما تستطيع الجهود الفردية أن تقوم به. ولو وفق الله رجالاً آخرين فقاموا في بعض النواحي بما قام به طلعت حرب لسدوا حاجة البلاد في تلك النواحي، ولوفروا جهودها لتبذل في غيرها من الشئون.

ولو أن الحركة التعاونية التي قامت في هذه الأيام وضعت أسسها من قبل ودعمت ببنك تعاوني يمدها بحاجتها وينظم نشاطها، ليسرت مشاكل التموين الحاضرة ولحفظت البلاد من السوق السوداء، وأساليب ذوي النفوس الجشعة من التجار ومحتكري البضائع الذين يمتصون دماء الشعب في أحلك الظروف.

والخطوة الأولى التي نرى أن تسلكها الحكومة [illegible] هي أن تشجع كل الحركات الاقتصادية [illegible] وأن تتولاها بعنايتها، وتقدم لها [illegible]، وأن تعمل على إيجاد بنوك تموّلها، فتنشئ بنكاً صناعياً، وبنكاً تعاونياً تساهم فيهما بأكبر نصيب، وأن تنشئ لكل منها مكتباً من الخبراء الفنيين يرسم لها الخطط ويقدم لها المعونة الفنية ويرشدها بما يكفل نجاحها واطراد رقيها.

أما نواحي النشاط الاقتصادي التي لا يتقدم لها الأفراد لجسامتها، أو لقلة ما يتوقع منها من الربح مع شدة حاجة البلاد إليها، فيجب على الحكومة ألا تتردد في القيام بها بنفسها، ويحسن إذا رأت أن تجعلها بعيدة عن الصبغة الديوانية أن تكل أمر الإشراف عليها إلى بنك وطني خاص، ويزيد في ضمان بعدها عن الصبغة الحكومية أن تجعل لها أسهماً يشترك فيها الأفراد.

بقيت الجماعات الخيرية والثقافية والفنية، وهذه الهيئات تحتاج لأن تعيد الحكومة النظر في أمرها، وتعمل على أن

تكون هيئات قوية واسعة الأثر . وخير ما يجب أن تشير به على هذه الهيئات أن تتخصص كل منها في ناحية واحدة محددة ، تقصر عليها نشاطها بدلا من ذلك الإبهام والغموض الغالب على أغراض كثير منها ، وتساعدها بنشر الدعاية القوية المنظمة لها على إنشاء فروع لها في مختلف الأنحاء ، وترغيب الكثيرين في الاشتراك الفعلي فيها ، وأن تمدها مع هذا كله بمعونة كافية ، وأن تعمل جهدها على أن تحمل منها كل العب ، فيما تقوم به من خدمة عامة في الباب الذي تخصصت به .

بهذه اللامركزية يتحقق اشتراك الشعب فعليا في هذا النشاط الاجتماعي ، وتصير مهمة الحكومة تقديم الخبرة الفنية والمعاونة المادية ، والإشراف على سير تلك الهيئات العامة مع المحافظة على كيانها الخاص واستقلالها بأمورها . (...)

قاف ، قطب

كتب الأستاذ « مهدي القزاز » في عدد الثقافة الماضي مقالا بعنوان « أدباء الأمم العربية ودعوتهم إلى عقد مؤتمر عربي » ، استعرض فيه ما كتبه أدباء العربية في « الثقافة » وغيرها بصدد هذه الدعوة .

وقد كان الأستاذ « قاف » من بين هؤلاء الذين كتبوا ، فترجمه الأستاذ قزاز إلى « قطب » كما يتبادر إلى الذهن ، وله بعض العذر في هذه الترجمة الغريبة !

ولما كان هذا فضلا لا أدعيه ، فإني أصحح الوضع فأرده إلى الأستاذ « قاف » فضله ، وهو غير « قطب » . وكفى .

وبهذه المناسبة أسأل : لماذا اختار الأستاذ « قاف » هذا الرمز ، وليس في اسمه كله « قاف » واحدة ؟ وأقف عند هذا الحد فلا « أفضحه » للقراء ! وإن كان أسلوبه يكشف عنه بحيث لا يلتبس بأسلوب « قطب » على كل حال .

سيد قطب

وهم لغوي

يقول الأستاذ المغربي بمجلة المجمع العلمي العربي (ج ١٠ م ١٨) : ضمير (هو) بضم الهاء ، فإذا أدخلت عليه واو العطف قلت (وهُو) أي بإبقاء الهاء مضمومة ، لكننا نسمعهم يقولون (وهْو) بتسكين الهاء . ألا يكون ذلك خطأ من قولهم ؟ بلى .

والصحيح أن الإسكان قراءة سبعية . قال الجعبري في شرح الشاطبية : وجه الإسكان أن هذه الحروف لعدم استقلالها نزلت منزلة الجزء فيما اتصلت به ، فصار المذكر كعضد ، والمؤنث ككتف ، فحملا عليهما في الإسكان ، وهي لغة أهل نجد .

عبد الله الحبيشي

الذئب وابن عرس

هجم ذئب على قطيع من الغنم واختطف منه شاة وانطلق بها مختبئا في الغابة ليأكلها ، وبعد أن مزقها إربا وأعمل أنيابه الحداد في لحمها وعظمها نهشا وقضما ؛ ومع شدة جوعه فإنه أدركه الشبع ، وبقيت منها بقية غير قليلة كومها إلى جاره حتى تكون عشاءه في المساء .

واستلقى بعد هذا الغداء الشهي وغلبه النعاس ، وفيما هو نائم تسلل ابن عرس بين الأوراق تجذبه رائحة اللحم الطازج ، وجاء إلى بقية الشاة فأخذ منها قطعة صغيرة ، وهرب بها إلى وكره ؛ واستيقظ الذئب ليرى ابن عرس يجري بغنيمته بعيدا ، فأطلق صيحة عالية جلجلت في جوانب الغابة :

اللص ، اللص ! المعونة ! لقد هلكت ، وسرق اللص مني كل ما أملك !

* * *

عقرب من الجن : أتؤمن بالناس ؟

عقرب ثان : لا تكن حرامياً إلى هذا الحد .

التفاح فى الأدب العربى

لفت نظرى وأنا أقرأ « كتاب الأغانى » الدور الهام الذى لعبه « التفاح » فى المدنية العربية ، وخاصة فى العراق ، فتفننوا فيه كل تفنن ، وأعجبوا به أيما إعجاب ، وتغزلوا فيه غزلهم فى المعشوق ؛ ولم يجاره فى ذلك أى ثمر وأى زهر ، حتى لو قلنا إن التفاح كان معبود العراقيين لم نبعد .

وحملهم على الهيام به أنه أحمر كالخدود المورّدة ، أو أصفر كوجه المتيم ، أو أبيض كالطهارة والنقاء ، أو أحمر وأصفر معاً كتحوّل حالات النفس فى الحب ؛ ثم له رائحة عطرية لطيفة ، لا بالقوية ولا بالضعيفة ، فكان لذلك كله مجال الخيال الخصب ، والفن البديع .

وكان يزرع فى بساتين العراق ، وما كان أكثرها ، حتى عدّ مؤرخ البساتين حول بغداد وحدها أيام العباسيين خمسة وثمانين بستاناً ، غير البساتين الخاصة فى الدور .

وتنوّعت البساتين ، فهذا بستان الورد ، وهذا بستان البنفسج ، وهذا بستان التفاح ، وهذا بستان النارنج ؛ وتنوع كذلك عشق الناس للأزهار والأثمار ، فمغرم بالورد ، ومغرم بالبنفسج ، ومغرم بالتفاح ؛ فحكوا عن الرشيد — مثلاً — أنه كان شديد الغرام بالورد ، وخاصة الورد الأحمر ، واتخذ بيتاً فى بستان الورد كان أثاثه جميعه بلون الورد ، وإذا جلس فيه تلبس جواريه الثياب المورّدة ، وتضع على رؤوسها تيجان الورد ، فيكون مجلساً من أغرب المجالس .

وأغرم الناس بهذا غرام الملوك ، وكلهم أجمعوا على الغرام بالتفاح واستجلبوه من الأماكن المختلفة ، واستنبتوه فى أرضهم ، واشتهر فى أيامهم منه أنواع — فمنه النوع القومسى [(١)] ، وهو أحمر اللون ؛ ومنه التفاح الداماني [(٢)] ، وهو نوع كبير حلو أحمر شديد الحمرة ، وضربوا به المثل ، فقالوا خدودها كالتفاح الداماني ؛ ومنه التفاح المسكى ، وهو نوع مضلّع كبير الحجم ؛ ومنه التفاح القريشى [(١)] ، وهو حلو شديد الحلاوة ، كبير هش ، أحد وجهيه شديد الحمرة والآخر شديد الصفرة .

هذا التفاح الجميل أوحى إليهم بالخيال الجميل ، والفن الجميل ؛ فأول كل شئ أنهم اتخذوه عوضاً عن المحبوب ، يقوم مقامه إذا غاب ، ويُؤنس به إذا لم يكن .

لما نأى عن مجلسى وشفَّهُ ... ودارت الكأس بهجراها
صيّرته تفاحة بيننا ... إذا ذكرناه شممناها
واهاً لها تفاحة أشبهت ... خدّيه فى بهجتها ، واها

* * *

ثم أمعنوا فى الخيال ، فأسبغوا على التفاحة ما صنع مع الله العذريون ، فالحبيب التفاحة والتفاحة الحبيب .

تفاحة ليتنى كل تفاحة ... يا ليتنى كنت الذى أو كَل

* * *

تفاحة من عند تفاحة ... قريبةُ العهد بكفّيها
أحببتُ بها تفاحة أشبهت ... حمرتها حمرة خديها

* * *

ولما بدا التفاح أحمر مُشرقاً
دعوت بكأسى وهى ملأى من الشفق
وقلت لساقينا أدِرْها فإنها
خدُودُ عذارَى قد جُمعن على طبق

* * *

وتفاحة فضّية ... عقيقيّة الجوهر
تندّت غناء الربيع ... فى روضها الأخضر
فلتُ سروراً بها ... إلى القدح الأكبر
وأنت لنا حاضرٌ ... وإن كنت لم تحضر

(١) أصله من قومس وهى إقليم فى ذيل جبل طبرستان .
(٢) نسبة إلى دامان ، مدينة قرب الرقة .

(١) نسبة إلى القريشية ، قرية بالجزيرة .

ثم غلوا في هذا ، فحرّم بعضهم على نفسه أكل التفاح لأنه والحبيب اسمان لمسمى واحد :

لا آكل التفاح دهري ولو
جنّبته كفّي من جنان الخلود
تالله لا آكله من قبل
لكنني أتركه للخدود

* * *

أكلت تفاحة فعاتبني خِلٌّ رآها كفّ معشوقه
وقال : خدَّ الحبيب تأكله ؟
فقلت : لا ، بل أمصّ من ريقه

ثم لعبوا بالحب عليه ، فعضّوا التفاحة ، وتهادوها معضوضة ؛ قال ابن المعتز :

تفاحةٌ معضوضةٌ كانت رسولَ القُبَل
كأنّ فيها وجنةً تقبّلت بالخجل
تناولت كفّي بها [illegible] من أمل
لست أرجّي غير ذا [illegible]

* * *

حيّاه من يهوى بتفاحة قد عضّ أعلاها بأسنانه
جاد ولم يبخل بها بعد ما عذّبه دهراً بهجرانه

ودعاهم الغرام بالتفاح ودلالهم أن جعلوه صحيفة غرامهم ، يكتبون عليه عصارة قلوبهم ، وتفننوا في ذلك فنونا بديعة ؛ فمن ذلك أنهم كانوا يلصقون التفاحة — وهي خضراء على شجرها — شيئا من الشمع أو الورق ، هو بيت من الشعر أو جملة رشيقة أو إشارات دالة ، فإذا استوت ونضجت كان مكان الشمع أو الورق أصفر والباقي أحمر ؛ أو يلصقون باقي جسم الشجرة ويتركون مكان الكتابة معرضا للشمس ، فتكون الكتابة حمراء ، وباقي التفاحة أصفر ، فتقرأ الأبيات أو الأشعار كأنها من فعل الطبيعة ؛ ويتفنن البستانيون في ذلك ، ويتقاضاها منهم العشاق بالمال الكثير .

قال صاحب « فوات الوفيات » في ترجمة أبي الجهد المعروف بشعر الزنج ، إنه كان مطورا بحفظ البساتين ، وقد كتب لمحبوبه هذه الأبيات بالبياض على تفاحة حمراء :

جودوا لمن تيّمه حبكم فهاما
وصار ضوء يومه من هجره ظلاما

ثم قال : « إن شعر الزنج هذا أهدى إلى محبوبه يوما تفاحا كثيرا أحمر كالشقائق ، وأبيض كالفضة ، وأصفر كالذهب ، منه ما كتب عليه ببياض في حمرة ، ومنه ما كتب عليه بحمرة في بياض — وعلى إحداها حمراء بأصفر :

نبتُّ في الغصن مخلوقة من قلب ذي شوق وأحزان
صفّرني سقم الذي أمرّني يخبر عن حالي وأشجاني

وعلى صفراء بأحمر :

تفاحة صيغت كما بدعة [illegible] صفراء في لون المحبينا
[illegible] بدمعه إذ ظل محزونا
فمن [illegible] وقيت من بلواه ، آمينا

* * *

ومن هيامهم بالتفاح وغيابه عنهم أحيانا أن اتخذوا له مثالا يتهادى به الأغنياء وأهل الترف ، فصاغوا من العنبر على مثال التفاح ، وكتبوا عليه ما شاءوا بخيوط الذهب ؛ قال في « الأغاني » : قال أحمد بن صدقة : « كنت عند المأمون ، وقد كان غضب على حَظيَّة له ، فلما طابت نفسه بالغناء ، وجّهت إليه بتفاحة عنبر مكتوب عليها بالذهب « يا سيدي ! سلوت ؟ » .

وكتبوا على تفاحة عنبر بالذهب :

ليس شيء يُتهادى مثل تفاح مكتّبْ
يا منى قلبي ما رأ يُ لذي عشق معذّب ؟

وقد أكثروا من التهادي بالتفاح ، وما أكثر الأخبار التي وردت في ذلك ، وما كانوا يهدون زنبيلا ولا شيئا

كثيراً ، إنما يهدون تفاحة واحدة صُنعت بها البدع ؛ إذ كان من قوانين الظرف عندهم الاعتداد بالحسن لا بالمبنى ، وبظرف الهدية وقلتها لا بكميتها وكثرتها . حدّث صاحب الأغاني عن «عريب» المغنية أنها قالت لصاحب لها : قد بلغني أن عندك دعوة اليوم ، فابعث إليّ نصيبي منها ، فبعث إليها طعاما كثيراً ، فلما وصل إليها أنهبته الناس ، وبعثت إليه رقعة تقول فيها : يا أعجمي يا غبي أظننتني من الأتراك ووحش الجند ، فبعثتَ إليّ بخبز ولحم وحلواء ؟! الله المستعان عليك . ثم علمته ظرف التهادي بإهدائه شيئاً قليلا جميلا قيمته في فنه لا في كثرته .

وقد قام التفاح هذا المقام لكثرة ما يستطيع الفنان أن يجيد فيه .

ثم كان من أجمل مظاهر الجمال عند الخلفاء والأمراء والسراة «الفوّارات» أو «النافورات» في البيوت وفي البساتين العامة ، قد صنعت من الرخام ... أو من الرخام ، وقد تصنع أنابيبها من الذهب والفضة ؛ وكان من أساليب تفننهم أن ينثروا الورد فوق عيون الفوارات ، فيدفعه الماء بقوة ويصعده إلى علو كبير ثم ينزل في البركة ، أو ينثر على الناس ؛ وقد اشتهر بهذا الوزير المهلبي .

فكان من إعجابهم بالتفاح أن يهندسوا الفوارة هندسة خاصة ، ثم يضعوا التفاح الأحمر فوق عين الفوارة ، فيدفعه الماء إلى أعلى ، وتتدافع قوة الماء النابع من الفوارة والهواء الذي يدفعه الماء إلى أعلى وثقل التفاحة وميلها إلى السقوط ، فتبقى التفاحة واقفة تدور في مكانها ، فيكون من ذلك منظر عجب . وفي ذلك يقول الشاعر :

وفوّارة ثائر ماؤها بتفاحة مثل خد العشيق
كمنفخة من رقيق الزجاج تُدارُ بها كُرة من عقيق

ولكثرة ولوعهم بالتفاح ألف الأدباء فيه التآليف المفردة ، فألف الجاحظ «كتاب التفاح» ، وألف بهذا العنوان «غلام ثعلب» و«الوشّاء» ، وإن كنت لم أعثر على شيء من هذه الكتب .

هذا قليل من كثير مما ورد في الأدب العربي من التفاح ، ولعل أديباً متضلعاً من الأدب الغربي يتحفنا بما ورد فيه ليكون درساً لطيفاً للموازنة .

وقد حرمتنا الحرب أن ننعم بالتفاح الجميل اللطيف ، فلا أقل من أن ننعم بذكراه .

أحمد أمين

ياليالي الهموم ! ...

يا ليالي الهموم لا تهجريني إن لي في دُجاكِ خير قرين !

***

أنتِ أسعدتني بظلمتك السو
داء ، إذ أنها كظلمة نفسي
أنتِ [...] صباح حزن
كنت أزجو لها بقلبي وحدسي
أنا في غرفتي تحيط بيَ الأو
هامُ ، ميتاً ما بين جدران رمسي !
لست ميتاً ، فإن قلبيَ حيٌّ
خافقٌ ، منشدٌ ألاريد بؤسي
إن حزني خير من الفرحة الشو
هاء ، تُبلى بكل شؤم ونحس
لي في الحزن نشوة قرّبتني في سماء الوقار ، من نور قدسي
وأنا اليوم في الهموم سعيدٌ
مفرداً أسكب الأسى فوق طرسي
تتغنى مني الدموع نشيداً وتشيد الدموع رهف حسي

***

ياليالي الهموم لا تهجريني إن لي في دجاك خير معين

«الكاظمية — بغداد» **علي جليل الوردي**

تجربة جروندتفج الداغركى

فى تعليم الكبار

يشغل تعليم الشعب عقول المفكرين فى العصور الحديثة ، لأن التجربة قد برهنت على أن التعليم العام الذى تكفله الدول للملايين من أهلها لا يؤدى إلى ما ترجوه من التقدم فى الحضارة والتفكير وأساليب الحياة . حقا أن الشعوب فى مجموعها تستفيد فائدة عظمى من تعميم التعليم الأولى فى كل صفوفها ، وحقا أن الحياة الاجتماعية والفكرية اليوم أعلى فى جميع الشعوب المتمدينة مما كانت عليه منذ قرن ؛ ولـكن الحيـاة فى تطور مستمر ، وإذا لم يساير التعليم حركة التطور وقفت المدنية عند حد محدود ، وصارت مهددة بالتخلف عن تيار التقدم المستمر .

ولذلك تهتم البلاد المتمدينة بأن تتعهد التعليم العام بها ، وتعلّم شعوبها بجهود متواصلة لتمشى بها الحركة إلى الأمام دائما . ومن الأمور التى اتجهت إليهـا عناية المفكرين مسألة جوهرية لها أعظم الخطر فى حياة الشعوب ؛ وذلك أن الملايين الذين يستفيدون بالتعليم العام الإجبارى يخرجون إلى الحياة ويضربون بأسهمهم فى جهادها ، سواء أكان ذلك فى الصناعة ، أم فى التجارة ، أم فى الزراعة ؛ فإذا هم اتجهوا فى حياتهم العملية نحو طلب الرزق تركوا الجانب الفكرى والروحى من حياتهم ، وأقبلوا على تحصيل المـكاسب من أعمالهم ، واشتغلوا بذلك كل الاشتغال حتى يصير أمرهم بعد قليل إلى حال تشبه حالة الأمية ، إن لم تكن أمية خالصة .

ولعل أكبر السبب فى ذلك أن أثر التعليم العـام فى السنوات الأولى من الحياة — وهى سنى الطفولة والصبا — ذلك الأثر لم يكن من القوة بحيث يتغلغل إلى أعماق نفوس الأفراد ، ولم يكن كافيا لإحـداث أثر دائم فى عقلهم وروحهم ، حتى يبقى فعله فيهم مدى حيـاتهم كلها . ولعل هناك سببا آخر لا يقل فى فعله عن هذا السبب ، وذلك أن عقل الطفل والصـبى يكون فى دور التعليم العام قاصراً عن إدراك الشىء الـكثير من مواد التعليم التى تحتـاج إلى خبرة بمعانى الحيـاة ، مثل العلوم الإنسانية جميعا ، فإذا انتهى الصبى من دراسة تعليمه العام الأولى لم تكن له القدرة على إدراك كل ما تلقّـاه ، ولم يستطع أن يهضم كل الغذاء الثقافى الذى قدم إليه إذا صح هذا التعبير .

ومهما يكن من الأمر ، فقد أدرك المفكرون أنه من الضرورى مواصلة تعليم الشعوب ، بعد أن تضرب بسهمها فى الحياة العملية ، وهذا ما يطلقون عليه اصطلاحا عنوان « تعليم الـكبار » . ولتعليم الـكبار عندنا فى مصر ، وفى بلاد الشرق كله ، معنى أوسع من هذا ، لأن الشعوب الشرقية لم تنشر بعد التعليم العام الأولى فى كل صفوفها ، ولهذا بقيت طوائف من الأهلين لا يزالون على أميتهم الفطرية ؛ وهؤلاء يكونون فى العادة متخلفين من تيار الحياة الجديدة تخلفا عظيما ، وتكون الحاجة الاجتماعية ماسة إلى إبلاغهم أولا إلى الحد الأدنى من الثقافة التى لا ينبغى أن يهبط المستوى الثقافى للأفراد عنهـا فى بلد من البلاد المتمدينة . فتعليم الـكبار عندنا معناه أولا إبلاغ الأميين مستوى الحد الأدنى الثقافى ، ثم الأخذ بيد الشبان الذين أتموا الدراسة الأولية ، ودفعهم مع تيار الحيـاة المتقدمة مع التطور الإنسانى العام .

وإنه لما يبشر بالخير أن الاهتمام قوى فى مصر والشرق كله بتعليم الـكبار ، إلى جانب الاهتمام بنشر التعليم الأولى الصالح ، وقد ظهر هـذا الاهتمام فى صورة واضحة ، سواء فى المشروعات الحـكومية ، أو فى مباحث المفكرين

ومطالبة المصلحين الاجتماعيين . وإنه لما يضيء لنا السبيل أن نعرف كيف عالج المفكرون والمصلحون هذه المسألة في البلاد الأخرى ، حتى نستطيع أن ننقل ما نستطيع نقله من آرائهم ، وأن نقتبس ما نستطيع اقتباسه من وسائلهم ؛ ولنا في كل ذلك أن نعدل آراءهم ووسائلهم ، ونتناولها بالصقل والتهذيب والتغيير حتى تصير ملائمة لظروفنا وتراثنا الثقافي ، وتاريخنا الماضي ، وما نرجوه لحياتنا من التوجيه في المستقبل .

فنحن هنا نعرض تجربة بدأت في بلاد الدانمرك ، وتلقفها المفكرون في بلاد أوروبا ، وعمدوا إلى تقليدها والاستفادة منها . وبلاد الدانمرك تشبه بلادنا في مرافق حياتها ، لأنها في أساسها بلاد زراعية مزدحمة بالسكان مثل مصر ، وقد آثرنا أن نلخص هنا ما كتبه أحد المفكرين الإنجليز ، وهو السير رتشارد لفنجستون في كتابه الحديث « المستقبل في التربية » قال :

إنه لمن العسير علينا أن نتصور بلاد الدانمرك أياماً حطمها الفقر ، وقعد بها فتور الهمة ، ولكن هذه هي الحقيقة ؛ فإنها لم تكن إلا على تلك الحال البائسة في أوائل القرن التاسع عشر . ثم تحولت بين عشية وضحاها إلى قطر سعيد يسير في طليعة أقطار أوروبا الديمقراطية تقدماً ونشاطاً ، ونجاحاً في الحياة ؛ ولم يكن السبب الأكبر في هذا التحول إلا أثر التعليم في مدارس الشعب العليا ، التي اختطها القس العبقري جرونتفج وشريكه الأسقف كولد . فكان جرونتفج صاحب رسالة ، يبتكر الفكرة ، ويبعث الروح ؛ وكان كولد رجلاً من الشعب ، يفتتح المعاهد ويسير ويجتذب الناس من ورائه بقوة خلقه وروحه . فأنشئت أول مدرسة عليا للشعب في سنة ١٨٤٤ ، وكان الغرض منها مقاومة الدعاية الألمانية في مقاطعتي شلزفج وهولشتين ؛ ثم تلتها مدارس أخرى حتى كان عام ١٨٦٤ ، وفيه وقعت الحرب بين الدانمرك وبين ألمانيا ، فحطمتها الجيوش الألمانية حطماً . ولكنها ردت على الهزيمة الطاحنة بالاستكثار من مدارس الشعب العليا ، فلم يأت عام ١٨٧٢ حتى كان لديها من هذه المدارس أربع وخمسون مدرسة ، وقد بلغ عددها اليوم سبعاً وخمسين .

وتكاد هذه المدارس تكون جميعاً (داخلية) يقيم فيها الطلبة ، ومدة العمل فيها ثلاثة أشهر للنساء في الصيف ، وخمسة أشهر للرجال في الشتاء ؛ وهي مدارس خاصة يملكها الأفراد أو مجموعات من الأفراد ، ويقتصر جهد الحكومة فيها على إعانات تساعدها بها . وأما الطلبة فيها فمن الفلاحين وصغار الملاك ، وقليل منهم من العمال . ولا يقبل فيها إلا من زادت سنه على الثامنة عشرة ، وليس من طلبتها إلا عدد يسير ممن تزيد معارفهم على المعارف الأولية ، فمعظم تلاميذها من الشبان الذين اتجهوا بعد المدرسة الأولية إلى الحياة العملية ، فقضوا في ممارستها ما بين سن الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، يعملون في الحقول أو ما سوى الحقول من مرافق الحياة .

وليس هناك ما يحفز أحداً على الدرس ، ولا ما يطمع الطلبة فيما تعطيه تلك المدارس من شهادات أو درجات علمية ، فالعلم فيها لا يقصد إلا للتثقيف . وتبلغ نفقات الدراسة والإقامة نحو أربعة جنيهات كل شهر للنساء ، وأكثر من ذلك قليلاً للرجال . والطالب يدفع هذه النفقة من عنده إلا إذا أعفي من نصفها نظير منحة من الدولة تخصص لإعانة الذين لا يستطيعون دفع تلك النفقات . ومع أن كل نفقات هذه المدارس أو نصفها يقع على كاهل الأفراد ، فقد قدر أن نحو ثلاثين من كل مائة شخص من الفلاحين في بلاد الدانمرك يتعلمون فيها . وإنه لمن المدهش حقاً أن يكون الأمر كذلك في بلاد الدنمرك ، وأن يبذل الفرد هذه النفقة راضياً ، مع أنه لا يتلقى في تلك المدارس إلا ثقافة مما يبدو للأنظار السطحية أنها لا تفيد الشعب العامل في حياته العملية ؛ فإن الدراسة هناك ليس لها صبغة

مهنية ، مع أن الطلبة جميعاً يدخلون تلك المدارس من غمار العمل فى الحياة ، ويزمعون أن ينطلقوا بعد إتمام دراستهم فيها إلى غمار العمل فى الحياة . فالدراسة هناك تتناول آداب اللغة ، والتاريخ ، والإنشاء ، والخياطة ، ومبادئ العلوم ، والرياضة البدنية ، (وللنساء الحياكة) ، ثم الموسيقى وبعض المدارس يزيد على بعض فى مستوى دراساته ومناهج تعاليمه .

وهذه المدارس تكون عادة فى الريف ، يدخل إليها الداخل من طريق ضيق تحف به البساتين ، وهى فى مظهرها تشبه المزارع . ومن أول ما يسترعى النظر فى داخلها ما علق على جدرانها من الصور ، وكثير منها من صنع مشاهير رجال الفن فى البلاد . ثم يسترعى النظر فى منهجها أنها تحتفل بالغناء الجمعى ، والكتاب الذى يجمع أغانيها يحوى طائفة صالحة من الشعر القديم والحديث والمترجم عن اللغات الأخرى .

وليس فى هذه المدارس شىء من أنواع الجبر على الدراسة وليس فيها امتحان ولا شهادات ، فالطلبة فيها يدرسون لأنهم يحرصون على ورود مناهل العلم حرصاً خالصاً ، لا تشوبه رغبة فى الاستكثار من التظاهر بالشارات العلمية .

فللمدرسة الشعب العليا ثلاث ميزات هى السر فى نجاحها ، الأولى : أنها تعلم الكبار ، والثانية : أنها داخلية ، والثالثة : أنها قوة دافعة للروح .

لم تحاول الدانمرك أن تحل مشكلة تعليم أبنائها بالزيادة فى سن التعليم الإلزامى ، فأكثر الناشئة الدانمركية يخرج من المدارس العامة فى سن الرابعة عشرة ، ثم يعمدون حيناً إلى العمل فى غمار الحياة ، ويعودون فى سن الثامنة عشرة إلى هذه المدرسة العليا لاستكمال دراستهم .

وقد رفض جرونتفج أن يسمح لأحد بالدخول فى مدرسته قبل سن الثامنة عشرة ، وأصر على ذلك إصراراً لا هوادة فيه ، ولم يكن ذلك أثراً من آثار رأى رآه بالنظر والفكر ، بل كان رأياً استقر عليه بفضل التجربة المتصلة والأخطاء المتكررة التى وقع فيها وتعلم منها . فقد دلته التجارب على أن الطلبة الصغار لا يستطيعون الاستفادة الكاملة من الدراسة ، لأن ذكاءهم لم يتفتح بعد ، ولأن إقبالهم على الدرس لم يكن على ما ينبغى لطالب الجد ؛ فرسخت فى ذهن جرونتفج من هذه التجارب أن فكرة « التعليم الثانوى للجميع » بعد سن الرابعة عشرة ، إنما هى أضمن سبيل للإسراف فى الأموال وإضاعة الوقت الثمين . ومن رأيه أن الذى يريد أن يستفيد بالتعليم الصحيح لا يستطيع ذلك إلا إذا عانى أمور الحياة حيناً ، وتأمل أحوالها عملياً فى نفسه وفى غيره ؛ فهذه هى الوسيلة لا وسيلة غيرها ، إلى تفهم ما فى الكتب من وصف للحياة .

وقد دلت التجربة على أن مثل هؤلاء الكبار الذين أتوا إلى المدرسة بعد ممارسة الحياة ومعاناتها ، يستطيعون أن يدرسوا فى ثلاثة أشهر أو خمسة ما يحتاج إلى كد وعناء لمدة [illegible] إذا كان الطالب لا يزال مراهقاً لم يختبر [illegible] أمور الحياة . وليس فى هذا القول ما هو بعيد عن العقل ، وقد أجريت تجربة شبيهة بهذه فى إنجلترا ، فإن جامعة أكسفورد ، قد أباحت للطالب ، إذا كانت سنه فوق الثالثة والعشرين ، أن يعفى من امتحان الدخول بها إذا كان قد أتم دراسة خارجية إضافية بعد وقت العمل لمدة ثلاث سنوات ، لا تزيد مدة الدراسة فى كل منها على أربع وعشرين حاسة ، كل منها لمدة ساعتين . وقد كان من هؤلاء من نجح فى دراسته الجامعية نجاحاً كبيراً ، مع أن جهود دراسته الإعدادية لا تعد شيئاً إذا قيست بجهود الطلبة المعتادة .

والسر الثانى فى نجاح التجربة هو أن الدراسة فيها داخلية ، فهذه الوسيلة وحدها هى التى تجعل الطالب ينغمر لمدة أشهر متعاقبة فى الجو التعليمى انغماراً كاملاً ، فهناك تتأثر الروح ، وينفعل الشخص انفعالاً قوياً بما فى المدرسة من روح حى ، ويزيد هذا الأثر قوة أن المدرسة فى مكان

منعزل في الريف ، بعيد عن ضجة المدن ومشاغلها ، فيكون أثر الحياة الاجتماعية فيها بالغاً بما فيه من فكر ، وما يحيط به من فن وجمال . وليس ذلك بالمستغرب ، فقد كانت أعظم المدارس القديمة أقرب شبهاً بالمجتمعات في النوادي والبيوت ، مثل مدرسة سقراط في رحبات الألعاب ، ومثل أكاديمية أفلاطون ، ولسيه أرسطو ، ومتحف الإسكندرية ، وما إليها .

والسر الثالث في نجاح التجربة هو اعتمادها على تثقيف الروح والنفس ، وتكوين الشخصية ، فإن التعليم الفكري لا غنى له عن أن يقترن بتغذية الروح وتقويم الخلق ، ولا تستقيم الحياة إلا بتعاون أخوين العقل والنفس . ومدرسة الشعب تتجه اتجاهاً ظاهراً نحو تغذية الروح ، لأن المقصود منها أن تعد الإنسان للعمل لا لمجرد اكتناز العلوم .

ومن أعجب العجب أن التعليم في مدرسة الشعب الدانمركية لم تكن له صبغة مهنية ، ومع ذلك فقد [illegible] على تقدم البلاد تقدماً اقتصاديا بكل [illegible] طلبة هذه المدرسة لم يتعلموا فيها زراعة [illegible] منها وقد امتلأت قلوبهم بالحماسة إلى الإتقان والإحسان ، فإذا بهم يصبحون خير الزراع . قال أحد رؤساء مدارس الشعب الدانمركية : «إن الطلبة يأتون إلينا نياماً ، ولا فائدة في تعليم من كان نائماً ؛ فنحن نعمد إلى قلوبهم فنوقظ فيه الروح ، فإذا بسائر الملكات يتبعه وتتم فيه اليقظة»

إن الحياة ملأى بالآلات العجيبة والنظم المحكمة ، ولكن هذه جميعاً لا قوة لها إذا لم تتح لها حركة الروح ؛ والفكر المثالي يستطيع أن يخلق الآلات ويبتدعها ولكن الآلات بغير فكر مثالي لا تلبث أن تصدأ وتبلى .

وقد أثرت المدرسة الشعبية العليا في الدانمرك أثراً عظيماً في نواح ثلاث : في الشخص ، وفي الحياة الاقتصادية ، وفي السياسة .

فأما الشخص فقد تحرك فيه الروح كما تقدم ، فخرج إلى الحياة مليئاً بالحماسة والتفكير السليم ، واستطاع بروحه المطهر أن يبتدع أحسن نظام تعاوني في العالم ، لأنه قد صفا روحه فجعله أعظم ثقة بالناس وأقدر على أن يكون محلاً لثقة إخوانه .

وقد تكونت من هؤلاء الأشخاص طبقة وسطى مستنيرة ، كان لها أعظم الأثر في إنهاض الاقتصاد القومي من سقطته السحيقة ، حتى جعلت الدانمرك من أسعد بلاد أوروبا حالاً ؛ ثم قد صارت هذه الطبقة الوسطى المستنيرة من أكبر عوامل التقدم في الميدان السياسي . فحزب الزراع هناك أقوى الأحزاب وأقواها دعوة إلى التجديد والتقدم .

محمد فريد أبو حديد

رسائل صينية

ظل اتصال الغرب بالشرق فى العصور الوسطى اتصال تجارة ، حتى كانت عصور النهضة فبدأ الغرب يتطلع إلى ما ظل طويلا فى أيدى الشرق من نفوذ وسلطان ومال . وأول ما بهر الغرب عندما زار الشرق ليستكشفه تمهيداً لغزوه ، كان هذا الثراء الضخم والبذخ العظيم اللذين رآهما فى تركيا خاصة ، عاصمة الشرق إذ ذاك ومقر حكومته .

ولما كان الشرق مجهولا إلا من طبقة المتأدبين ، وحتى تلك الطبقة لم تكن لتعرف عنه إلا النزر اليسير ، فقد كانت الحكومات الأوروبية تختار هؤلاء المتأدبين ذوى الإلمام اليسير بالشرق ، فهو أحسن من لا شىء ، ليكونوا سفراءها إليه ليتعرفوا لها مجاهيله ، فيمهدوا لها سبيل الفتح والسيطرة على أساس من المعرفة الحقة .

ولسنا بصدد ما عمله هؤلاء السفراء فى السياسة ، ولكننا نعنى بما عملوه فى الأدب ؛ فقد تفننوا هم ومن قرأ لهم من الأدباء فى وصف بذخ الشرق واتساع سلطانه ، وآثار إعجابهم بل تعجبهم كثير مما رأوا من عجيب للماديات والمعاملات والنظم . واستغل الشرق فى الأدب الغربى كثيرا فى تلك الفترة ، فقد فتح آفاقا من الخيال ، وأثار طائفة من العواطف ، بل إنه استغل كستار مزركش يخفى وراءه الكاتب ما يريد من نقد لأمته لا يستطيع أن يجهر به أمام هذا السلطان الناشئ القوى فى الغرب .

وكتب الكتاب كثيرا عن الشرق مبهورين وواصفين وناقدين ، ولكنهم أخيراً تنبهوا إلى أن وراء هذا البذخ بل وراء تلك المجالى روحا يستحق منهم أن يقفوا أمامه ، لا ليتعرّفوه فيحترموه فحسب ، ولكن ليتطلعوا إليه فى لهفة ، فقد أفقرت منه مدنيتهم الغربية على جلال جمالها وخطر شأنها ؛ وكلما سارت مدنيتهم فى خطاها الواسعة نحو رقى العلوم وعلو السيطرة على المادة ، وسارت فى الوقت نفسه نحو الافتقار فى الروح الإنسانى والإيمان بالله . أحس هؤلاء الكتاب ظمأهم لهذا الروح العظيم الذى فقد الشرق كل شىء إلا هو ، فعاش راضيا بما فقد ، قويا متطلعا إلى المستقبل فى صبر وإيمان ، بما لم يفقد .

وهذه رسائل على لسان صينى كتبها الكاتب الإنجليزى المعاصر (ج . لويس دكنسن) Lowes Dickenson عن الصين ، وسماها « رسائل جون الرجل الصينى » يقارن فيها بين مدنية الروح فى الصين ومدنية المادة فى الغرب ؛ وهو بذلك يرينا صورة من هذا التطلع الغربى نحو روح الشرق ؛ ولقد نشرها منذ أكثر من أربعين عاما دون إمضاء ، ليُخيّل إلى القراء أن كاتبها صينى بالفعل . والعجيب أن القراء صدقوه فى هذا الزعم ، بل قرأ من أرق الناس فهما لأمور الحياة كالزعيم الأمريكى [illegible] . ولما عاد فنشرها منذ أعوام قليلة باسمه [illegible] الرسائل بحجتها بعد أن أزاح المؤلف الستار عن خدعته التى أراد أن يخدع بها القراء .

والآن وقد كثر الكلام والنقاش والتفكير حول مدنية الشرق ومدنية الغرب ، والمقارنة بينهما بسبب هذه المحنة التى يجتازها العالم ، والتى لا تبشر بشاعتها بخير ، نرى نحن الشرقيين على الأقل ، فى مثل هذه الرسائل نوعا من الراحة أو الهدوء ، أمل مبعثه التطلع إلى مستقبل قريب تقاس فيه المدنيات وتقوّم لا بمقدار ما حققت للحكام من نفوذ وسلطان ، وما أتاحت للأفراد من كسب ومال ، ولكن بمقدار ما حققت للشعوب من طمأنينة ومحبة ، وهدوء وسعادة .

ولما كانت هذه الرسائل قصيرة قليلة فقد رأينا أن ننقلها إلى العربية كما هى حتى لا تتعرض إلى ما قد تتعرض له الآثار الأدبية من تشويه الاختيار ، أو تحلل الاختصار .

الرسالة الأولى :

هذه هي الأحداث الحالية في الصين تظهر الآلام من جديد ، وهذا التنافر الجوهري بين المدنية الشرقية والمدنية الغربية . بل إنها تظهر كيف أن جهل الواحدة منهما بالأخرى واحتقارها لها قد أديا إلى ما أديا إليه ، فأوجدا هذا الإشكال الحالي في الصين . ولقد لزمت الصمت طوال تمثيل تلك المأساة على مسرح الصين ، ولكن شعور السخط المتزايد في نفسي ، وأملي الذي قد يكون في الواقع حلماً من الأحلام في أن يمحي بعض سوء التفاهم ، قد أرغماني أخيراً على أن أفتح شفتي لأعرض أمام الجمهور البريطاني بعض وجهات النظر التي طالما ألحّت عليّ في أن أعلنها للناس . وأنا لا أريد بحال أن أتحدث في هذه الأزمة القائمة . إن مهمتي في الواقع هي أن أبث في الشعب البريطاني تقديراً لمواطني ولسياستهم أقرب إلى العدل من تقديرهم الحالي . وسبيلي إلى هذا أن أشرح لهم وجهة نظرنا نحن نحو المدنية الغربية ، وأن أبين لهم الدواعي التي تحمي أنفسنا قدر المستطاع من آثار مدنيتهم تلك . وإخال أني أهل لأداء مثل هذه المهمة ، فإن إقامتي الطويلة في إنجلترا تخولني الحق في أن أتكلم عن نظمهم بينما غيبتي الطويلة عن وطني لم تجردني من حق في أن أتكلم عن نظمنا . إن الصيني صيني حيث كان . وإني إن اعترفت أني أرى فيما وصلت إليه المدنية الغربية كثيراً مما يثير إعجابي ، فإني أعترف في الوقت نفسه أني لم أر بعد شيئاً يجعلني أندم على أني ولدت في الشرق . يا له من اعتراف عجيب بالنسبة إلى الرجل الإنجليزي ! فقد اعتدتم أن تنظروا إلينا على أننا همج . وقد يكون لكم في ذلك بعض العذر ، لأنكم لم تكونوا في الواقع تلتفتون إلينا التفاتاً جداً إلا حينما كنا نقتل واحداً من مواطنيكم . وكان لكم أن تحكموا من مثل هذه الثورات العصبية الجامحة أننا أمة من القتلة الأشرار جامدي الشعور ؛ ونصيب حكمكم هذا علينا من الصحة كنصيب حكمنا نحن على مدنيتكم ، إذا بنينا هذا الحكم على ما نراه من جيشكم في الصين . إنه لا يجب أن يحكم علينا بما تفعله الجماهير منا ولا بما تفعله حكومتنا ، إن حق لي أن أقول ذلك ، فالحكومة في الصين لا تمثل الأمة . ولكن حتى هذه الأعمال الثائرة التي تثير سخط الطبقة المتعلمة من أهل الصين تستحق من الأوروبيين ، فيما أجرؤ أن أرى ، نظرة أخطر مما نالت إلى الآن ، وسخطاً أقرب إلى التأني والحذر منه إلى الاندفاع والتمادي . إن هذه الثورات ما هي إلا تعبير قوي عن شعور عميق في الواقع ، ويجب أن يظل أبداً ، العامل الأول في علاقتنا بالغرب . وهذا الشعور هو أننا لا نطمئن أبداً إلى مدنيتكم ، بل إننا نكرهها أشد الكراهية ؛ أما أنتم فإنكم ترجعون هذا الشعور إلى جهلنا وتعصبنا . وأما الحقيقة ، واسمحوا لي أن أراها كذلك ، فهي أن هذا الشعور يعتمد كل الاعتماد على التعقل .

ويجمل بي أن أشرح لكم وجهة نظري ، فإني آمل لكم ، فراني ، أن تقدروا هذا الذي أقوله في كثير من الجد وغير قليل من الصبر والتأني : إن مدنيتنا أقدم مدنية في العالم ، وليس معنى هذا أنها تكون بذلك خير المدنيات ، ولكن من المسلم به أيضاً أنها لا تكون بذلك شر المدنيات ؛ بل إن الأمر على العكس من ذلك ، فهذا القدم نفسه ، على أية حال ، برهان قوي على أن نظمنا أو مدنيتنا قد يسرت لنا شيئاً من الاستقرار والثبات تبحث عنهما عند الأمم في أوروبا فلا تجدها ، وليست مدنيتنا مستقرة ثابتة فحسب ، ولكنها تقوم على نظام خلقي ، كل ما يقابله في مدنيتكم هو الفوضى الاقتصادية . ولست أتعرض الآن إلى المفاضلة بين دينكم وديننا ، أو إلى المناقشة في شيء من هذا القبيل ، ولكن الذي لا شك فيه أن دينكم أضعف تأثيراً في نفوس جماعتكم من ديننا في نفوس جماعتنا . إنكم تعلمون

ولا شك أن دينكم المسيحية ، ولكن مدنيتكم لم تكن مسيحية في يوم من الأيام ، بينما مدنيتنا نحن « كونفوشية » قلباً وظاهراً ، وبمجرد وصفها بأنها كونفوشية معناه أنها خلقية ، أو على الأقل ، فأنا لا أسوق افتراضات ، إن العلاقات الخلقية بيننا هي العلاقات التي يوحي بها هذا الدين أصلا . أما عندكم فإننا نرى أن العلاقات الاقتصادية لها المقام الأول بينكم ، ثم تحاولون تطعيم تلك العلاقات بالأخلاق ، ولكن على قدر طاقتها ليس غير .

وهذه وجهة نظر أستطيع تبيانها بالمقارنة بين نظرتكم إلى الأسرة ونظرتنا نحن إليها . فالأسرة عندكم ، حسبما يستطيع الأجنبي أن يرى ، ليست إلا مجرد وسيلة لإطعام الطفل وحمايته حتى يصل إلى سن يستطيع فيها أن يبقى هو بأمر نفسه . فأنتم ترسلون أبناءكم ، مبكرين في ذلك قدر المستطاع ، إلى مدارس داخلية حيث يحررون أنفسهم فيها بأسرع ما يمكنهم من أثر البيت والأسرة ، وما يكادون يصلون إلى سن مناسبة حتى تدفعوهم لخارج البيت ليشقوا طريقهم ، أو ليخطوا حظهم ، كما تقولون ؛ ومنذ تلك اللحظة بالذات ، اعتمادهم على والديهم كثيراً ما ينتهي اعترافهم بأن عليهم نحوهم واجباً ، فلهم أن يذهبوا أنى شاءوا ، وأن يفعلوا ما أرادوا ، وأن يتكسبوا وينفقوا كيفما يحلو لهم . بل إنهم مخيرون في أن يبقوا على الصلات التي بينهم وبين أسرتهم أو أن يفصموا عراها . إن الفرد عندكم هو الوحدة ، وكل الوحدات حرة طليقة . لا أحد عندكم مرتبط بغيره ، ولكن لا أحد له أصل في الأرض . إن مجتمعكم حسبما تصفون مجتمع يتقدم . إنكم دائماً سائرون إلى الأمام ، كل فرد منكم يحس أنه من واجبه ، بل من المحتم عليه ، أن يشق لنفسه طريقاً جديداً . إنه من العار عندكم أن يظل الإنسان حيث وُلد ؛ فالرجل ، لا يستحق عندكم أن يكون رجلا ، يجب أن يقامر وأن يكافح ، وأن ينافس ، وأن يفوز ، وإلى هذه الخصلة في مجتمعكم يرجع بلا شك هذا النشاط العظيم الذي امتزتم به ، وهذا النجاح الهائل الذي أصبتموه في كل الفنون المادية . ولكن إلى هذه الخصلة نفسها يرجع هذا الذي يصادم الرجل الصيني في مجتمعكم هذا القلق والاضطراب والفقر في الخلق ، فلا يوجد بينكم قانع ، وليس بينكم من يجد من وقته الفرصة لأن يحيا ، لأنكم جميعاً منهمكون في سبيل إنماء موارد العيش . إن « الارتباط النقدي » ، كما يقول بعض كتابكم ، هو الصلة الوحيدة التي تعترفون بها بين الناس .

أما في الشرق فإنا نعد هذا كله من أمارات التوحش في المجتمع . إنا نقيس الحضارة لا بمقدار ما نجمع من وسائل العيش ، ولكن بقيمة هذه الحياة التي نحياها ، وما [illegible] به من صفات . إن مجتمعاً انعدمت فيه الصلات [illegible] وتقلقلت حاله ، ولم يقدس ماضيه ، [illegible] حاضره ، وكل ما فيه تلهف لنيل ما سيأتي به الغد ، إن مجتمعاً تلك صفاته ومزاياه لا نعده نحن مجتمعاً حقاً ؛ إنا لا نرضى بل لا نقبل أن نكون أغنى منكم ، ولا أبرع منكم علماً ، وأرقى منكم فناً ، إذا كان ثمن هذا أن نتبع النظم التي تسيرون عليها !!

إننا في كل هذا على النقيض منكم ، فنحن ننظر أولا إلى المجتمع ثم إلى الفرد . إن القاعدة عندنا أن يولد الفرد منا وسط هذه الصلات والعلاقات التي سيستمر محافظاً عليها مدى حياته ، ينتهي حيث بدأ فرداً في أسرته . وعلى ضوء هذه الحقيقة ، بل وفقاً لها يرسم لنفسه خطة حياته ويحياها . إنه يعتز أن يقدس أجداده ، وأن يجل والديه ويطيعهما ، وأن يعد نفسه منذ سن مبكرة لأعباء الزوجية والأبوة . إن الزواج عندنا لا يحلل الأسرة ولا يشتتها ، فالزوج يبقى في أسرته لا ينقطع عنها ، وزوجه

تصبح فرداً ينضم إلى جماعته وأقاربه . وهذه الجماعة هي الوحدة الاجتماعية عندنا ، لها أرضها المشتركة ، ولها معبدها ومراسيمها الدينية ، ومحكمتها الخاصة التي تفصل في المنازعات بين أفرادها . إن أحدا في الصين لا يحس نفسه وحيدا إلا إذا جنى هو على نفسه ذلك بما ارتكب من إثم . وإذا يكن ليس من السهل على الصيني أن يثرى ، فليس من السهل أيضاً أن يجوع ؛ وإن يكن ليس ثمة ما يدفعه إلى المنافسة والمكافحة ، فليس ثمة أيضاً ما يدفعه لأن يغش أو يظلم أو يضطهد . وإذ قد تحرر من عذاب الطامع وخوف الحرمان ، فقد تحرر من السعي وراء جمع وسائل العيش ، وأصبحت لديه الفرصة لأن يحيا الحياة نفسها . وبفضل تلك الفسحة من وقته ، وبفضل غريزته الإنسانية أيضاً ، يستطيع الصيني أن ينعم بمباهج الطبيعة حوله ، وأن يرقى خلقه وبهذبه ، وأن يوجد بينه وبين إخوانه علاقات إنسانية طيبة لا [illegible] الطامع . والنتيجة لكل هذا ، [illegible] الإنسان في الصين لا تملك إلا أن [illegible] المتوسط ومن حيث الخلق والقيمة أرقى من السواد الأعظم من مواطنيكم في أوروبا . وفي الوقت الذي نعترف فيه بعظمة مدنيتكم العلمية والعملية نرى أنه من المستحيل أن نعجب ، بلا قيد وعلى طول الخط ، بمدنية أدت إلى معاملات بهذه الفظاظة ، وأخلاق بهذه الخسة ، ومظاهر تبعد عن الجمال كل هذا البعد ، كالتي تصدمنا دائما في عواصمكم الكبيرة . إننا نعترف أننا لا يمكن أن نوصف بأننا قوم متقدمون ، ولكننا ندرك أن هذا التقدم قد يكون فاحش الثمن . ونحن نفضل مزايانا المعنوية على مزاياكم المادية ، بل إننا مصممون على أن نتعلق بنظمنا التي نؤمن أنها تكفل لنا تلك المزايا الخلقية ، وأن نحافظ عليها ولو كان ثمن ذلك الحرمان من مزاياكم المادية .

الدكتورة سهير القلماوي

نداء إلى الأدباء

بعث إلى صديق من كبار الأدباء والكتاب خطابا خاصا يسيل بعاطفة كريمة نحو كثير من كبار رجال الفكر والأدب ، وقد ضمن كتابه اقتراحا طريفا ، كان معناه يجول في النفس جولانا خفيا ، فما كادت عيني تقع على كلماته حتى امتلأ قلبي به ، وانعقد عليه اعتقادي . وذلك أن يبعث الأدباء (عريضة) إلى رفعة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا يسألونه فيها أن يعين ذلك الأديب الكبير الذي تحدث عنه صاحب الخطاب عضوا في مجلس الشيوخ ليكون رمزاً لتقدير الدولة لرجال الأدب والفكر . [illegible] بمخاطبة صديقي الأديب الكبير في هذا [illegible] ووافقني على مبدأ إرسال (العريضة) ، ولكنه [illegible] أن [illegible] ، ورأى أن يكون الطلب خالصا [illegible] لأحد الأشخاص . فما رأي رجال [illegible] لا يجدر حقا أن يكون لهم صوت في برلمان مصر ، وهم الذين يقضون الحياة في التفكير من أجل مصر . إن في البرلمان أدباء بغير شك ، ولكنهم إنما ينطقون فيه بلسان السياسة ، ويمثلون فيه مذاهب الأحزاب ، ونحن في حاجة إلى من ينطق باسم الفكر والأدب وحدهما .

أكتب هذا نداء إلى رجال الفكر والعلم ، آملا أن تجتمع كلمتهم في هذا الأمر على رأي ، فيختاروا من بينهم واحدا يرتضونه — كائنا من كان — ممن يمثلون الأدب خالصاً . ويقيني أن رفعة الرئيس الجليل أول من يقدر الأدباء وأصحاب الفكر ، ويحقق رجاءهم ، ويحرص على معاونتهم في الحكم .

محمد فريد أبو حديد

الإنسان المعجز[1]

— ٢ —

أشرنا في ختام مقالنا السابق إشارة مجملة إلى توارث الاستعدادات في الإنسان ، وإلى وسيلة انتقال الملكات والمواهب من الوالدين إلى الأولاد . وقلنا إنه على أثر تكوّن الخلية الأولى أو اللاقحة في الرحم واستقرارها ، تأخذ هذه الخلية في الانقسام إلى أنصاف خلايا ، والأنصاف إلى أرباع ، وهلم جرا ، حتى تتكون كتلة من الخلايا تأخذ هي أيضا في عملية أخرى هي عملية التخصص ، فيكون منها في الجنين خلايا الدم ، وألياف العضل ، وأنسجة العظام . ثم نبهنا إلى أنه في أثناء هاتين العمليتين : عملية الانقسام وعملية التخصص ، تظل طائفة صغيرة من الخلايا بمعزل عن هاتين العمليتين ، محافظة على [illegible] جليل هو التناسل ، واستمرار [illegible] مادة الوراثة .

هذا ما أنشأه في ختام مقالنا السابق . وقد تساءلنا بعد ذلك كيف يحدث ألا يشبه الأولاد أبويهم أو بعضهم بعضا شبها تاما ، وكيف يختلف الإخوة بعضهم عن بعض في وراثة خواص الوالدين واستعداداتهما ، فيكون لهذا كل المزايا ولذلك كل النواقص ، ويكون لثالث نصيبه من هذه وتلك ، فتتوزع صفات الأبوين توزيعا غير متساو ، يرجع إلى الحظ وحده وإلى مجرد المصادفة .

فهذه الطائفة الصغيرة من الخلايا التي تكمن في الجنين ، وتسكن في الموضع الذي تتخلق فيه فيما بعد أعضاء التناسل — هذه الخلايا التي تسمى بالخلايا الجرثومية ، والتي هي أصل الوراثة ، إذا عاينتها بالمجهر ألفيت في معظمها أشكالا صغيرة تشبه الخيوط أو الأمشاط ، وتسهل معالجتها أكثر من غيرها من سائر الخلايا بالأصباغ . ومن ثم سميت بالصبغيات . وعدد هذه الصبغيات في كل خلية من خلايا الجرثومة واحد في كل نوع على حدة ، سواء أكان هذا النوع إنسانا أم حيوانا أم نباتا . وهو في الإنسان يبلغ في الراجح ٤٨ صبغيا .

والمعروف الآن بشيء من اليقين أن هذه الصبغيات الثمانية والأربعين تشتمل على استعداداتنا الوراثية بأسرها . واللاقحة ، تلك الخلية الخصبة الأولى التي ينشأ منها الإنسان بكل محاسنه ومساويه الموروثة على صورة من الصور ، هذه الخلية التي تضم الإنسان المُعْجِز الكبير كله على صغرها الدقيق ، تبدو لنا بهذه الكتابة أعجوبة من أروع الأعاجيب ، التي تكشف لنا الطبيعة عنها في ثروتها الخالدة .

فهذه الصبغيات الثمانية والأربعون الكامنة في خلية الجنين لا تنتقل كلها من المورّث ، بل ينتقل نصفها فقط كما تدل المشاهدات العلمية . وذلك أن خلايا التناسل الناضجة التي تفرزها أعضاء التناسل ، والتي يتخلق منها الطفل ، لا تحتوي إلا على نصف عدد الحبيبات الوراثية الموجودة من الأصل . ذلك أنه عند النضوج الذي يسبق القدرة على التناسل ، يقع في هذه الخلايا انقسام تصبح بعد اكتماله كل خلية تناسلية قادرة على الإنسال ، محتوية على نصف الكمية الوراثية التي كانت موجودة في الخلية قبل الانقسام . ومعنى ذلك أن كل موهبة ، أو ملكة ، أو خاصية ، أو استعداد عند الوالدين ، يبدو للانتقال إلى الذرية احتمال النقص — وإن شئنا الدقة — نصف احتمال ، وأن الوالدين لا يورثان كل طفل إلا نصف ملكاتهما الوراثية ، تاركين للمصادفة وحدها اختيار هذا النصف . وإذا كانت هذه الأنصاف تختلف في تركيبها ، وفي اختيارها كل مرة عن المرة السابقة ، كقطر الدائرة يقسم الدائرة إلى نصفين متساويين

(١) يجب أن ننبه إلى أن النظريات العلمية الواردة في هذا المقال والذي قبله والمأخوذة من كتاب « سر المستقبل » لجروندال لا يتجاوز تحقيقها العلمي سنة ١٩٢٩ .

في المساحة ، ولكنه إذا كان فوق هذه الدائرة أو فيها ما يختلف بعضه عن بعض ويتفاوت . فتحريكة بسيطة للقطر يغير محتويات القسمين عما كانت عليه من قبل ، وكلما ازداد التحريك ، كلما ازداد الخلاف أو نقص بين نصفي الدائرة . فالصدفة هنا هي المحرك لقطر الدائرة ، وهي المغير لمحتويات نصفي الدائرة . فإذا كانت هذه الأنصاف الناشئة من لعب الصدفة تختلف في محتوياتها ، فإنه يتضح بلا عناء لماذا يختلف الإخوة غالباً في وراثتهم عن الوالدين بعضهم عن بعض ، فيرث أحدهم كل المزايا أو بعضها ، ويرث الآخر كل المضار أو بعضها ، ويغلب على هذا الولد الخير ، ويغلب على ذاك الشر

وهنالك حالة واحدة تتشابه الإخوة فيها تمام الشبه تلك حالة التوأمين اللذين يكونان من جنس واحد إما ذكرين وإما أنثيين ، واللذين يكون الأصل في نشأتهما خلية لاقحة واحدة ، انقسمت عند [illegible] في الرحم بصفة خارقة للعادة إلى نصفين مستقلين [illegible] منهما نشأ مستقلا . فإذا ولد مثل هذين التوأمين [illegible] التمييز بينهما ، ثم هما ينشآن ولكل منهما ما لتوأمه من الخواص الذهنية والمميزات الجسدية تماما ، ولو تغيرت ظروف حياتهما واختلفت كل الاختلاف .

أما التوأمان العاديان فينشآن من لاقحتين اثنتين ، ويكون شأنهما شأن الإخوة العاديين من حيث التشابه وعدمه .

ويمتاز الحيوان والنبات في التشابه عن الإنسان . في وسعك أن تزاوج بين أجناس خالصة من هذا النوع أو ذاك فتخرج نتاجا متماثلا ، لكن هذا يتعذر في الإنسان . ومن ثم نجد دائما في « أنقى » الأجناس البشرية حيودا بسيطة أو تفاوتا بسيطا في الذرية ، وإن بقيت كل المميزات الرئيسية مشتركة بين الجميع تكون صورة من الجنس « النقي »

وهنالك ظاهرة في الوراثة تبدي لك اختلافا بينا بين الصورة الخارجية للإنسان والصورة الوروثية ، وذلك أن تكون بعض الاستعدادات لمميزات بعينها مضمرة فلا تظهر . مثال ذلك ما يبدو على شخص من مظهر الخلو من بعض الأمراض الوراثية ، على حين يكون هذا المرض مضمراً فيه ، متنقلا في ذريته من جيل إلى جيل حتى يظهر في واحد من الذرية . ولكي تظهر الاستعدادات المضمرة على الصورة الخارجية للإنسان يجب أن يكون لدى كل من الوالدين عديل هذه الاستعدادات . ويقع هذا في بعض حالات الزواج بين الأقارب ، إذ يكون احتمال التشابه أو التماثل في الاستعدادات موجودا . ومن الاستعدادات المضمرة الصلع ، فقد يظهر في الرجل ويختفي في بنيه ثم يظهر في حفيده .

هذه بالإجمال نظرية الوراثة : فنحن اليوم لا نعرف فقط أن الاستعدادات والكفايات الذهنية يتوارثها [illegible] ، بل نعرف أيضا علة التفاوت الظاهر في [illegible] فهنا من الناس عاقل ، وذاك ضعيف العقل ؛ وهذا علاته أكثر مما علات ذاك ؛ والبعض له من الكفايات الوروثة الممتازة ما ليس لغيره من مواطنيه ؛ والبعض الآخر مرزوء باستعدادات تمثل انحطاطا وشرا وبيلا . وهكذا الناس « لا يتشابهون بعضهم بعضا ، لا في الأفكار ، ولا في الشهوات ، ولا في الأقوال ، ولا في الأفعال ، ولا في الأديان » .

وإذا كانت هذه الأرزاء والمواهب والأخلاق الموزعة بين الناس ، على هذه الصورة من التفاوت ، وكانت وراثية تقرر مع ما تستكمله من التربية قيمة كل امرئ من الناحية الاجتماعية والثقافية ، فإن من شأن هاتين الحقيقتين الواقعتين أن يفتحا بابا لرفع الجنس البشري عن مستواه الحالي إلى مستوى خيرته ونخبته ، أو إلى ما يقرب من هذا المستوى ، وذلك بمد الاستعدادات الوراثية القيمة إلى

أكبر عدد من الناس ، وقصر الاستعدادات الوراثية السيئة على أقل عدد ممكن من الناس . وهذه مسألة لم يفت أصحاب المذاهب الاجتماعية الاشتغال بها أو التشدق بها على الأقل . وقد اختلفت وسائل ذلك على قدر اختلاف أصحاب هذه المذاهب ؛ فبعضها يرى إعفاء ذوى الاستعدادات الشريرة من واجب التناسل ، فيقل الأشرار مع الزمن ، وتزداد نسبة الأخيار تبعاً لذلك ، فيرتفع مستوى الجنس البشرى شيئاً فشيئاً ، وتستأصل الأمراض الوراثية الوبيلة مع أصحابها تدريجاً ، فيقل أصحاب العقول الضعيفة والمفطورون على الإجرام ، ويكثر عدد الحاذقين وأصحاب المواهب .

وهذه الطريقة يعرفها مربّي الحيوان ، فقد تسنى له إنتاج فصائل قيمة من الحيوانات الزراعية حفظ بها نوع الحيوان المرغوب فيه ، واستكثر واصطفى خواص نادرة . وقد حُققت هذه الطريقة عملياً لتقرير مبلغ نجاحها ، فوُجد أنه إذا أخذ على سبيل المثال من نوع ما من أنواع الحيوان أضخمُه ، وعنى بتناسله ، ارتفع مستوى هذا النوع في المتوسط من جيل إلى جيل ، لكنه ظهر أن في خلال ذلك حالات تدل على القهقرى ، ورجوع الأحياء إلى ما كانت عليه في الأصل بدل أن يطرد نموها ، غير أن هذه حالات طارئة لا تمنع من استئناف التقدم وإن عاقته بعض الشيء .

وثمة نظريات أخرى تعارض هذه النظرية الطبيعية التي تقوم على أساس انتقاء الأصلح والأخصب . وهي ترمى إلى رفع الجنس البشرى بمؤثرات خارجية يظن أنها تحدث تغييراً في مجرى الوراثة ، وتحولا في مادتها . وقد أمكن استخدام هذه النظريات مع النبات والحيوان بشيء من النجاح ، فلماذا في زعم أصحابها لا تنجح مع الإنسان ؟

ويحسن قبل أن نتناول ذلك أن نشير إلى أن تغيير مجرى الوراثة وتحول مادتها أمر وقع بالفعل فيما سلف من ملايين السنين ؛ فللكائنات الحية اليوم استعدادات لم تكن لأسلافها الأقصين ، ومعنى ذلك أنها اكتسبتها في وقت ما . وعلم الأحياء يسمى هذه الطارئة تحولا . وقد شوهدت في بعض أنواع النبات ، وتشاهد في الغالب في الحشرات وأنواع منحطة من الحيوان .

وهذا التحول هو عبارة عن تغيير يقع طفرة في جبلّة النواة الجرثومية ، ويخلق جديداً فيما يكون حكمه حكمها من حيث التوريث . وقد تناولت الداروينية هذه الظاهرة فقررت أن التحولات التي تحدث صدفةً تحسيناً وحفظة في النوع ، تتيح لحاملها مزية في الجهاد من أجل الحياة تنتقل منه إلى ذريته . أما ما يكون فيه « التحول » ضاراً مؤذياً فسرعان ما يكون نصيبه الفناء .

فمذهب الانتقاء الذي يرمى إلى رفع الجنس بأكمله إلى مستوى خيرته ونخبته ، يجد إذن في التحولات الصالحة ما يكفل [illegible] . وهي تحولات تتكرر في مئات آلاف السنين التي تطل [illegible] هذا الجنس .

ولم يوفق العلم إلى تعليل هذا التحول تعليلا واضحاً كل الوضوح ، فالجهاد في تحقيق المؤثرات والظروف التي تخلق مثل هذا الخلق الفجائي في كيان المادة الوراثية الثابتة كل الثبات ، إنما هو على الفروض وحدها . وقد لوحظ أن « التحول » وإن وقع فجاءة ، ليقع في أوقات دورية إلى حد ما ، بفعل مؤثرات خارجية لم تحقق التحقيق الكافي .

فإذا كانت التحولات التي تقع فجاءة على مر الزمن ، ويكون حكمها حكم المادة الوراثية المركبة في الأنواع من حيث التوارث — إذا كانت هذه التحولات طبيعية لأنها تنتج بمؤثرات خارجية من فعل الطبيعة ، فإن ثمة جهداً وسعياً حثيثاً لإحداث مثل هذه التحولات صناعياً ، وجعلها تتوارث كالتحولات الصناعية .

وقد أجريت تجارب في هذا الباب في كل من الحيوان

والنبات ، فنقلت بعض أنواع الفيران إلى مناخ أحر مما اعتادته، فلما تناسلت جاء النسل طويل الذيول . فأعيدت إلى مناخها الأصلى ، فجاء الجيل التالى محافظا على هذه الظاهرة ، لكنها عادت فاختفت فيما تلا من الأجيال بعد ذلك . وحقنت بعض الأرانب لتغيير لون أعينها ، فتأثرت الأجنة بالحقنة ، لكن الأجيال التالية بعدها سلمت من هذا التأثير ، وبقيت المادة الوراثية فى هذا النوع على حالها .

وقد قطعت ذيول أجيال متعاقبة من الفيران فلم تولد هذه الأجيال ولا التى تلتها قصيرة الذيل ؟ وقطع ذيل قطة فجاء صغارها قصار الذيل ، فاغتبط أصحاب النظرية بهذه النتيجة ، لكنه سرعان ما تبين أن قصر الذيل إنما جاء من أب قصير الذيل .

فهاتان المحاولتان : الاستعانة فى الحالة الأولى بالطبيعة لإحداث تحول فى مادة الوراثة كتغيير المناخ ، واللجوء فى الثانية إلى مؤثر خارجى كالحقنة ... كالقطع ... قطع ذيل القطة — هاتان المحاولتان تدلان رغم ما أصاب بعض حالاتهما من النجاح الجزئى العارض الذى لم يلبث أن اختفى أثره ، على أن جبلة النواة الجرثومية أو المادة الوراثية تظل مستقلة عن الجسم لا تتأثر بما يطرأ عليه ؛ فلا تأتى الذرية بلا ساق إذا بترت ساق للأب أو الأم ، ولا تولد قطة بلا ذنب إذا بتر ذنب الأب أو الأم . وإذا حدث تغير فى خاصية من خواص الخلقة ، كلون عين الأرنب من حقنة معينة لم يكن هذا « تحولا » بالمعنى الذى أسلفنا إليه ، لأن التحول إذا وقع بات حكمه حكم مادة الوراثة ، وانتقل إلى الذرية جيلا بعد جيل .

***

بقى أنه قد جرت مع الإنسان نفسه تجارب لإحداث « التحول » المنشود ، وإكسابه بذلك خواص يتوارثها جيلا بعد جيل ؛ فلم ينجح فى الإنسان ما نجح مؤقتا فى الحيوان ، كما شوهد فى تلك الفأرة التى نقلت إلى منطقة أحر وكما يشاهد فى مخلوقات أحط . فقد نقل الإنسان إلى أجواء أخرى غير جوه للتأثير المباشر فى مادته الوراثية ، فلم يتأثر بحال من الأحوال .

ويلاحظ أنه يسود الناس اعتقاد بأنه فى مكنة الحامل ، بنوع من المؤثرات الإيحائية ، أن تكسب الجنين محيا وخواص خاصة . بل إن هناك كتبا تتناول مثل هذه الحالات ، وتبنى عليها طريقة « لتحسين » الجنس البشرى .

غير أننا نقول إن بعض الحالات التى يجزم بصحتها إنما هى حالات أمهات ثبت أنها على استعداد هستيرى من شأنه أن يجعل للقوى النفسية تأثيراً فى أجنتها . أما الأمهات اللواتى تكون حالتهن طبيعية فهن بمنجى من هذه التأثيرات .

***

فالطريقة المزعومة « لتحسين » الجنس البشرى ، ورفعه إلى مستوى خيرته وتحسينه بطريقة أو طرق مفتعلة ، يمكن أن يقال فيها إنها أخفقت فى الوصول إلى هدفها إخفاقا تاما . إذ كانت كل التجارب التى جرت ، والعمليات التى أجريت لم تصل إلى التأثير بصورة دائمة فى جبلة النواة الجرثومية أو مادة الوراثة ، ليضمن انتقال التحسين المزعوم إلى الذرية والأجيال المتتابعة .

وقد تناول جريندل Gruendel فى كتابه « بشر المستقبل » هذه المحاولات بالتعقيب الكافى ليثبت أن السنن الطبيعية أجدى فى رفع المستوى البشرى من الاصطناع . ويحملنا ضيق المقام على الاكتفاء بالإشارة دون الإفاضة ، وعلى إرجاء البحث فيما يقبل بين البشر من أصحاب العقول الضعيفة والمفطورين على الإجرام ، ويكثر من عدد الحاذقين وأصحاب المواهب ، إلى فرصة أخرى .

محمود الدسوقى

نماذج بشرية :

أوليس

١ – فى الإليـاذة

أوليس أحد أبطال هوميروس . رأيناه للمرة الأولى فى الإلياذة على رأس جنده الذين جمعهم من مملكته بجزيرة كورفو ، التى لا تزال الأمواج تلطم صخورها إلى اليوم ، وذلك لكى يساهم مع بلاد اليونان الأخرى فى حملتها الشهيرة على طروادة إحدى مدن آسيا الصغرى .

وكلنا لا ريب يذكر سبب تلك الحرب الضروس ، وأصداؤها التى سجلها شاعر اليونان العظيم لا تزال تتردد بجميع الآذان . ومن يستطيع أن ينسى هيلانة ، هيلانة مضرب الأمثال فى الجمال ، وإن كانت السبب فى تلك المحنة التى أثارت الغرب ضد الشرق عشر سنوات [illegible] .

قالوا : إن باريس أحد أمراء طروادة أتى يوما فى تجارة إلى شواطئ البليبونيزيا ، وإذا بهيلانة زوجة منيلاس ملك إحدى تلك الجهات تلهو على الشاطئ مع رفقة لها ، فهاله جمالها ؛ وكان الأمير مشرق الطلعة ، فوقع هو أيضاً بقلبها ، وكان ما شاءت الأقدار ، فتواعدا على الهرب سويا ، ونشرا القلاع إلى طروادة .

وعلم زوجها بالخبر ، فأخذته شهامة الرجال ، ونفرت مدن اليونان كافة إلى جوار الزوج الذى ثلم شرفه ، وتصدى لقيادتهم أجاممنون أخو منيلاس ، وأعدوا الحملة ، وأبحرت السفن ، وأرست حيث ضرب الجند حول طروادة الحصار ، وكانت معارك تبيض لهولها النواصى ، وإذا صح أنها كانت كلها فى قسوة ملاحم السنة العاشرة التى اكتفى هوميروس بأن صور لنا جزءاً منها . وكم من أبطال تميزوا فى تلك الميادين الساحقة ! أخيل أشجع من ولدت الأمهات وأصلب الرجال عزما ؛ وإياس ذو الحول والطول ؛ وهكتور أنبل أهل طروادة وأخلدهم ذكرا ؛ ثم أوليس .

وفى الحق أن أوليس لم يحتل مكان الصدارة بين أنداده الخارقين ، ولكنه أعمق دلالة وأمس بالإغريقى العادى رحما من الجميع . أوليس أنموذج للشعب اليونانى ذاته بما فيه من قوة وضعف ؛ هو صورة واقعية للأخلاق اليونانية والملكات اليونانية . وإلى هذا فطن الإغريق كافة ، فرأى كل منهم فيه نفسه أو جانبا منها بما نعرفه عنهم من الشجاعة وروح المغامرة وتفتح النفس للمعرفة ، والإقدام على المخاطرات مع القدرة على ملابسة الواقع ، وتدبر الصعوبات ، ثم المرونة فى معالجة الناس والأشياء ، مما يدفعهم أحياناً إلى إسكات صوت الضمير ، والتعلق بالهدف دون نظر إلى نبل الوسائل أو مدى ما فيها من قسوة . وتلك كلها صفات سنراها عند أوليس فى تاريخه بالتطور على تفاوت فى النسب ، وتطور فى الاتجاه وفقاً لسير الزمن [illegible] .

صادف أوليس إذن هوى الشعب اليونانى الذى اطمأن إليه كما يطمئن المرء إلى نفسه ، وإذا به يصبح رمزه الحى ، وإذا به يتطور بتطوره ؛ فلم تكد عصور البطولة تنقضى ويأخذ الشعب بأسباب الحياة العملية ، وينصرف إلى السيطرة على المادة ، وارتياد بقاع الأرض ، وركوب متن المياه التماساً للعيش ومواجهة المآل ، حتى رأينا بطلنا يحتل المكان الأول فى الأوديسا ، ملحمة هوميروس الثانية ، وما هى إلا قصص لمغامرات أوليس أو أوديسيس ، كما كانوا يسمونه ، أثناء عودته إلى وطنه عبر البحار . ونظر الشعب الإغريقى فرأى أنموذجه يسايره فى تطور خلقه واتجاهات نفسه فزاد به تعلقا ؛ حتى كان القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد ظهور أوليس إلى الوجود بخمسة قرون ، وإذا بسوفكليس المؤلف المسرحى الذائع الصيت يتخذ منه بطلا لروايته الخالدة «فيلو كتيت» Philoctète

وقد حمل الزمن فيه محله ، فأصبح الماكر الذي لا يتورع عن شيء في سبيل الوصول إلى ما يريد . ومن عجب أن يسير رحلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأوديسا ، ثم ينتهي بخبث « فيلوكتيت » ، وأن نجد في كل مرحلة بذور المرحلة التالية ، حتى لنحسب أنه كان عنده كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو محك الزمن أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليوناني كله يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة ، فساد المدنية .

فلنتتبع إذن بطلنا نلتمس فيه صورة الشعب اليوناني بأكمله خلال مراحله التاريخية ، وليكن حديثنا اليوم قاصرا على أوليس الإلياذة ، ففيه حقيقة نفسه في ذلك الحين ، وأشباح ما سيصير إليه فيما بعد .

وكان يوما مشهودا يوم رأينا أوليس لأول مرة ، فلمسنا ما تحلى به من شجاعة وحزم ومعرفة بحقائق النفوس .

وذلك أن أخيل العاتي النفس — [illegible] رئيس الحملة ، إذ سلبه قسرا أسيرة [illegible] أسلابه ، فتخلى عن القتال ؛ وكل من يذكر شجاعة أخيل التي لا مثيل لها يستطيع أن يتصور ما استهدف له الإغريق إذ ذاك من أخطار وخصومهم رجال ذوو بأس ، وهذا ما كان ، فقد انهزم الإغريق وانسحبوا إلى الشاطئ يعدون سفنهم للإقلاع ، وكادوا يعودون أدراجهم خائبين ، لولا أن تداركت الأمر « بالاس » ربة الذكاء وحامية الإغريق .

« فانطلقت من أعلى الأولمب بأجنحة حثيثة إلى حيث رسو السفن . وهنالك وجدت أوليس ، أوليس الحكيم حكمة زيس . وجدته جامدا في مكانه لا يمس قلاعه ، وقد نفذ الألم إلى أعماق قلبه . إلى جانب البطل وقفت الإلهة وخاطبته قائلة : يابن لايرت ! أيها الإلهي ! أي أوليس الحكيم ! أتنطوون بصدور وطنكم وتتركون لبريام وأهل طروادة غنما لنصرهم هيلانة الإغريقية ؟! وبلاد الإغريق ولدت ، ومن أجلها هلك كل من استشهد من إغريقيين حول طروادة بعيدين عن وطنهم ؟! هيا ! بلا مهل ! إلى صفوف الجند ! بقولك المقنع أمسكهم عن الهرب ، لا تسمح لسفنهم أن تشق أمواج البحر » .

ونظر أوليس فإذا بها بالاس التي تتجه إليه بالحديث ، وهو الإغريقي الصميم الذي يعرف كيف يجل آلهة الذكاء وبين أحضانها نما ، وبإشعاع منها مت إلى المجد بسبب وهاله الموقف وقد خلعت قلوب الرجال ، فلاذوا بأعقاب النجاة . وما إن يحل بالنفوس اليأس من الحياة حتى تطير العقول حرصا عليها . فكيف له أن يقف بمفرده أمام جيش بأكمله وقد ذهب الخوف بلب الهاربين ! وهبه مثل [illegible] أو لا ترى أنه هالك لا محالة ؟! قد تستطيع شجاعة حمقاء أن تخاطر بحياة صاحبها في يوم كهذا دون أن تصل [illegible] أوليس فقد كان أحكم من الحمق ، وأشجع [illegible] ذا قلب مفكر ، ولذا أقدم في حزم [illegible] معطفه وأخذ من أجاممنون صولجان الملك ليكون له الحق في مخاطبة الجند ، ثم التأثير فيهم بما يحمل في يده من رمز الولاية . ولعله كان يدرك بفطرته السليمة ما يستطيع الصولجان من شق نفوس سامعيه لحديثه ، على نحو ما كانت ألفاظه تستطيعه بدون تلك العصا السحرية أو غيرها من المظاهر التي تعمل في جماهير الناس ، بل وتخضعهم فعلها العجيب . ثم سار ، « وكلما لقي أحد الملوك أو القادة أوقفه بقوله المعسول : أيها البطل الشهير ! أمثلك يرجف خوفا ؟! اثبت وثبت جندك . وأما إذا لقي جنديا مغمورا يحث رفاقه على الهرب ، فإنه يضربه بصولجانه ويعنفه بأمر القول : أيها الشقي ! قف واستمع إلى أمر قادتك ، أيها الجندي الخائر القوى ، المنحل العزم . يامن لا اعتبار له في صفوف قتال ولا مجلس مشورة » !

وهكذا تبين الحكمة للشجاعة سبل النجاة والفوز .

ألا تراه كيف أخذ كل نفس بما تستحق من لين أو عنف ، وقد عرف كيف يمتلكها جميعا ، إما بتحريك معانى القوة والكبرياء فى القلوب التى تستشعرها ، أو الخوف والخضوع عند من ألفوهما . وهذه أدلة الذكاء الذى ينفذ إلى حقائق النفوس ويلابس الواقع ، وهو بعد ذكاء لا يعوق الإقدام بل ينير خطواته .

وانتهى به المسير إلى موضع الجمعية التى انعقدت للتشاور فى الأمر ، وإذا بترسيت يخطب الجند ليحملهم بقوله النادر الخداع على الاعتقاد بأنه من الخير أن يعودوا إلى بلادهم . وكان ترسيت هذا ثرثارا مسرفا ، خصب النفس فى الوقاحة والجرأة ومجابهة كل خزى ؛ وكان يحذق تخريج اللغو يثير به ضحك الجماهير وسخريتها ، وهو أخس المحاربين . رجل أعمش أعرج ضيقت كتفاه المقوستان من صدره ، وعلى رأسه المدبب كانت تتأرجح بضع شعرات شعثة . وفطن أوليس لساعته أنه لابد له من تدبير الحاكم المسيطر لتهدأ النفوس من توترها ، وتتحول عن الاتجاه الذى انصرفت إليه . فأسرع إلى ترسيت وضربه بالصولجان ضربة تركت بظهره سناما كسنام النوق ، فخر باكيا مخبولا بعد أن كان يصول ويجول منذ هنيهة كأسد الغابة . وكان الجند يعرفون فيه الجبن والنهاهة ، فملأت أصواتهم بالضحك . وهذا ما قصد إليه أوليس الذى كسب المعركة ، إذ تبدل الجو وسكنت القلوب . وهنا علا المنصة وما زال بالمحاربين يقنعهم بضرورة البقاء ليستولوا على طروادة ، حتى استمعوا له وانقادوا إلى رأيه ؛ وذلك لأنه عرف كيف يخاطبهم ، وهم الرجال المطبوعون الذين يحركهم الكبرياء ، كما يقودهم الجشع الأدنى والطمع فى الأسلاب ، ثم هم قوم يؤمنون بإرادة الآلهة ، وقد قضت تلك الإرادة أن يحاربوا وأن ينتصروا . ففيم التراجع ؟! والخطيب من التفاؤل والثقة بما يقول بحيث لم تلبث الجماعة كلها أن هتفت له مؤيدة متحمسة .

وكان هذا من أجل ما نعرف فى حياة أوليس من مواقف ؛ وفيه تجلت صفاته النفسية : إقدام فى حكمة ، وخبرة بدخائل النفوس ، وذكاء نافذ ، وثقة بالنفس .

وعاد الإغريق إلى أسوار طروادة يشددون عليها الحصار ، وبرز لهم أبطال المدينة يدفعونهم عنها . وأما الشيوخ فكنت تراهم يتزاحمون بأعلى الأسيجة حيث أخذوا أماكنهم ليشهدوا القتال « كتلك الصراصير التى تزقزق فوق الأغصان ، بينما الحصاد يعملون مناجلهم فى حقول الغلال » ؛ وتمر بهم هيلانة فيروقهم جمالها ، ويذكرون أن امرأة كهذه تستحق أن يقتتل من أجلها الرجال . وثارت ببريام رغبة الاستطلاع ، فأوقف الفتاة قائلا : « حدثينى يا بنيتى العزيزة عن هذا البطل ، هذا الذى يقصر عن أجاممنون بمدى رأسه ، وإن يكن صدره أعرض منه ؛ وسلاحه راقد إلى الأرض الخصبة ! وأما هو فيسير بين جنده كما يسير الكبش غنى الجزة بين نعاج البيضة » . وأجابته هيلانة : « هذا ابن لايرت ، أوليس الحكيم . غذته أرض أيثاكا التى تعرفها الصخور الجرداء . بطل واسع الحيل حكيم المشورة » .

هذا هو الرجل : أبى كالكبش ، حكيم كريس .

وكم كانت له فى الإبانة من بطولة . ومن العدل أن نذكر سيره فى ظلام الليل مع ديوميد ليتعرف على مواقع العدو ، وما كانت لهما من مخاطرات جنونية . وفى اختيار ديوميد له أكبر دليل على أنه كان معروفا بالشجاعة المتدفقة إلى جانب أصالة الرأى . ولقد جرح ديوميد فى تلك الليلة القاتمة وأحاط به العدو ، ولكن أوليس لم يتركه وحيدا ، بل ضمد جروحه وعاد به .

ولم تكن شجاعة أوليس جسارة قلب فحسب ، بل شجاعة حقيقية ؛ فهو قوى الجسم قصير صلب متين ألا

ترى كيف أنه لم يخش بأس نفسه ، بل نازله فى السباق ، وانتصر عليه يوم أن أقام أخيل المسابقات الرياضية الرائعة احتفالا بدفن صديقه العزيز بتروكل !!

ولكنها بعد شجاعة تتميز عما سواها . فهو يخضع فى الأغلب وتباتها لحكمته ، وحكمته إحساس صادق بالممكن ، وقسط واعتدال ، ثم غريزة تدفعه إلى المداراة والدهاء ، ولهذا اختير على رأس وفد ذهب إلى أخيل ليثنيه عن عناده ؛ وهنالك وجه إلى البطل خطبة تكاد تطير بأجنحة خفيفة ، خطبة مؤثرة نافذة قوية ، ولكنه أمام عناد أخيل لا يُلحّ بل يتركه بابتسامة حزينة .

ومن ثم نراه رغم شجاعته لا يحجم عن الحرب إذا قضت الضرورة . أولم يرفض أن يعود إلى القتال مع أخيل بعد موت بتروكل ! « أخيل ! يا ابن الآلهة ! إنى أعرف شجاعتك ، ولكن الجند جياع ، فلا تدعهم الآن إلى القتال ليطاردوا العدو إلى مدينته [illegible] بالقمح ويطفئون ظمأهم بالنبيذ فتتجدد قواهم [illegible] وما يستطيع المقاتل إذا حرم الطعام أن يصمد من الفجر إلى غروب الشمس ، فلابد — مهما كانت حرارة قلبه — أن يثقل التعب قليلا قليلا جسمه المنهك ؛ يهاجمه الجوع والعطش فتتقصف أرجله وسط القتال » .

وأما أخيـل فلا يريد أن يستمع القول ، وكيف يُتحدث عن ولائم وراحة وقد مات صديقه بتروكل وما زال دمه يطلب الانتقام ، وقد حل الأسى قلوب الرجال . ولكن أوليس يرد عليه فى شىء من التهكم بل المرارة : « يا ابن بيليه ! أيها البطل الذى لا يقهر ! إنك أشك أنك تتفوق قوة إذا أخذت سلاحك ، ولكنى أعتقد أنى أفوقك حكمة ، فسنى فوق سنك . لقد توفرت لى السنين فأخذت عنها خبرة تنير لى الطريق . اتبع إذن مشورتى تطامن من حدة نفسك . لقد مل الجند الذابح بعد أن قطت السيوف متسبط الزرع بالقش وضعف المحصول ، وقد مال زيس — فيصل الحرب — بالميزان . وما بالجوع يبجل الجند موتاهم ، وفى كل يوم تتساقط الأبطال وفيرة العدد . فمتى نضع حدا لآلامنا ؟ ! لنؤد واجب التحية لموتانا ، ولنستجمع عزمنا . لنسكب الدمع يوما على قبور من فقدنا ، ولنشبع جوعنا ، ولنرو عطشنا نحن الذين أفلتنا من الموت حتى نستطيع إذا ارتدينا دروعنا الأبية أن نقاتل العدو بقلوب جديدة العزم » .

هذا هو أوليس الشجاع إلى حد الهوس عندما يترك الهوس مجالا للنصر ، والحكيم المتروى عندما تحدثه خبرته بنفوس الجند ومدى قدرتهم على احتمال شدائد الحرب ووجوب التريث وتجديد القوى . هذا هو أوليس الحريص على كرامته يضحى بها أمام أخيل نفسه ، وإن كان من قوة الخلق بحيث يعترف للغير بفضله ، ويقر له بالسبق فى الميادين التى لا يستطيع أن يثب فيها .

[illegible] تدل على أنه وإن يكن صادق [illegible] فهو يعرف دائما كيف يضع صالح الوطن فوق نفعه الخاص ، بل فوق كبريائه . وهو بعد ورع تقى يخشى الآلهة ويحترمها ، ولكنه لا يحجم عن الصمود لها إن أضرت به ، وذلك فيما عدا « بالاس » إلهة الذكاء ؛ فهو يخضع لها خضوعا تاما ؛ وذكاؤها حاد وحكمتها عملية . يعتمد على الحظ ، ولكنه لا يسقط من حسابه كل ما يمكن أن يتوقع من نكبات يُعد لها آلاف الحيل . وهو فى هذا أصدق تمثيلا لأصدق الصفات اليونانية من أى بطل آخر من أبطال الإلياذة ، بل من بطلها الأول أخيل نفسه المسرف الكبرياء ، المشئوم الشجاعة . ولكن الزمن سار سيره ، وأخذت الحكمة تطغى شيئاً فشيئاً على نفس أوليس ، وتتراجع الشجاعة ، وهو فى ذلك يمثل تطور الشعب اليونانى كله كما سنراه فى أوليس « الأوديسا » بالمقال الآتى .

دكتور محمد مندور

في كتاب عبث الوليد :

تصحيفات يغفلها أبو العلاء

كان مما ورد على المعري وهو رهين محبسيه نسخة من ديوان أبي عبادة البحتري فيها تصحيف وتحريف ؛ وقد طُلب إليه أن ينظر فيها فيصلح من خللها ويعالج من عللها فأملى الشيخ في ذلك كتابه (عبث الوليد) ، وقال في مقدمته : أثبت ما في ديوان البحتري مما أصلح من الغلط الذي وجد في النسخة المكتوب في آخرها أنها بخط ظفر بن عبد الله العجلي ، وإنما أثبت ذلك ليكون مولاي الشيخ الجليل أدام الله عزه كأنه حاضر القراءة ... إلى آخر ما ذكر .

... ولقد تعرضت لمراجعة هذا الكتاب وإمعان النظر فيه ، حتى أصبح لي — بعد تردد — أن أدلي برأيي عن أشياء فيه يمكن أن ندخلها في باب ... هنا بعض ما ينتظم منها في سلك (التصحيف) فقط مما لم يصلحه أبو العلاء ، على كثرة ما أصلح من التصحيفات ؛ وأقتصر من ذلك على ما لا مجال للجدل فيه ، ولا مرية في غفلة المعري (رحمه الله) عن النص عليه وتصحيحه .

١ — جاء من قصيدة البحتري التي أولها : ما يمنعُ ذاك الغزال الغرير :

من قباذٍ ويزدجردَ وفيرو ... زَ وكسرى وقبلهم أردشير

قال أبو العلاء : هذا على التقديم والتأخير ، وفرّق بين واو العطف وأردشير بقوله (قبلهم) وإنما الحد أن يقول : وكسرى وأردشير قبلهم ، إلا أنه اضطر إلى ذلك كما قال ثعلبة بن صعير المازني :

أعميرُ ما يدريك أن رُبَّ فتية
بيض الوجوه وفي الحروب مساعر

أي ومساعر في الحروب ... إلى آخر ما قال مما يدور حول جواز الفصل بين المتعاطفين بشبه الجملة (الظرف كما في بيت البحتري أو الجار والمجرور كما في بيت ثعلبة) . وكل هذا تخريج مبني على تصحيف لم ينص عليه أبو العلاء ، إذ صحة الكلام : (... وفيروز وكسرى وقيلهم أردشير) ، والقيل الرئيس أو الملك .

٢ — ومن التي أولها : لو أسعدت سعدى بتنويلها :

لا كانت الدنيا ، وكان أرت ... فاضلَها تابعٌ مفضولَها
وقفا عارفةٌ لم يكن ... مقفولُها بادي مفعولها

قال : وقوله مقفولها كلمة قلما تردد في أشعار الفصحاء وإنما يتكلم بها العوام ، وكأنهم يضعونها موضع المصدر كما قال[1] الميسور في معنى اليسر ، والمجلود في معنى الجلد . وقد يجوز أن يكون قولهم (كان كذا على المقفول) أي على القلة ؛ ويحتمل أن يكون المقفول في معنى الشيء الذي فيه قلة ، كما يقال رجل مجنون أي به جنون ، ومحموم أي به حمى . اهـ

وليس ... تخريجات صحيحة لكلمة (مقفول) ... لم يشر إليها في كلامه البتة . وإنما صحة البيت هكذا :

وقفا عارفة لم يكن ... مقولُها بادي مفعولها

ومعنى البيت واضح ؛ ويكون بين مقولها ومفعولها مطابقة معنوية من تلك المطابقات التي يتعشقها أبو عبادة . وقريب من هذا البيت في معناه قول البحتري في قصيدة أخرى :

خطبنا إليه قوله عن فعله
ومن يفعل الإحسان فهو يقول

٣ — ومن التي أولها : ألا فاتٌ من تلاقٍ تلاف ؟ :

ما تراه أعفَّ في زمن الجو
رِ يُرى منه في زمان العفاف

قال المعري : كان في الأصل أعفّ في زمن الجور ،

(١) لعله (قالوا) .

والصواب وعفت بالواو . وهذا كما يقال للرجل : ما تراه وقد عف في زمن الجور يعمل في زمن العفاف ؟ وكأن (قد) ها هنا مقدرة مع الواو ... الخ . قلت : ليت أبا العلاء وقد تنبه إلى هذا كان يتنبه أيضاً إلى أن (الجور) مصحفة عن (الخون) مصدر خان ، إذ المعنى على ذلك أقوم ، ويكون ثمة طباق بين الخون والعفاف في آخر البيت ، مما يغرم بإيراد مثله أبو عبادة .

٤ — ومن التي أولها : تسرع وأيسر هذا السعي يكفينا :

وإن نشاء شرعنا في نطوله
شروعنا ، فأخذنا منه ما شينا

قال : كان في النسخة (وإن نشا) وهذا غلط لا يجوز مثله على هذا الرجل ؛ ولعله (فإن همما شرعنا ..) أو نحو ذلك مما يقوم مقامه مثل : أحتدينا وإن ظمينا وهو كثير . هـ .

وأرى أن الأفضل في تصحيح هذا البيت أن نجعله (ولو نشاء ...) ، فنحافظ على الفعل [illegible] الترديد الذي قصد إليه البحتري بقوله في آخر البيت : فأخذنا منه ماشينا — مخفف شئنا — والترديد كما عرفه ابن رشيق هو[١] : أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه أو في قسيم له ؛ وقد ضرب لذلك أمثلة عدة منها قول ابن المعتز :

لو شئت لا شئت خليت السلو له
وكان لا كان منكم في معاناتي

فالترديد في (شئت ولا شئت) و (كان ولا كان) .

على أننا بوضع (لو) موضع (إن) نلزم البحتري استعمال لغة مرجوحة ، هي وحذف اللام من جواب لو في حالة الإثبات . وكان الأصح أن يقال : ولو نشاء لشرعنا ... ولكن استعمال اللغة الضعيفة خير في كل أحواله من الوقوع في اللحن أو مخالفة الوزن .

٥ — ومن (الترديد) الذي قصد إليه البحتري أيضاً قوله من بائيته التي مطلعها :

« رأى البرق مجتازاً فبات بلابل »

كريم إذا ضاق الزمان فإنه
يضيق الفضاء الرحب في صدره الرحب

وضع أبو العلاء (يضيع) موضع (يضيق) ثم قال : كان في النسخة يضيق الفضاء الرحب ، وقد يحتمل هذا المعنى على أن تكون (في) مؤدية معنى (من) ، كأنه يضيق الفضاء الرحب إذا قيس بصدره ، ويضيع أبلغ في المعنى . هـ

وأقول إن من أمتع الطرق دراسة البحتري ، وعرف خصائص أسلوبه الشعري يتحقق لديه أن الرجل لا يرضى بكلمة (يضيق) هنا بديلا . فلنشكر أبا العلاء على هذا التخريج الذي خرجه — باعتبار أن الفعل يضيق — من أن « في » تكون مؤدية حينئذ معنى « عن » ، فذلك هو الصواب في البيت لا غيره .

٦ — ومن التي أولها : هواها على أن الصدود سبيلها

[illegible] عن العلا
إلى غيرها شيء سواه يميلها

يشرح أبو العلاء هذا البيت شرحاً لا يخلو من غموض ، وهو يتوقف خلال ذلك عند الضمير في (سواه) ، ولعله ، كما يفهم من كلامه ، كان يرى صحة الكلمة (سواها) بعود الضمير على (النفس) في الشطر الأول . ولكن كل هذا لا يزيل لبس المعنى ، وإنما يزيله أن ندع (سواه) على حالها ثم نصحح التصحيف الواقع في الكلمة الأولى (متى) وصوابها (فتى) ، ويكون البيت :

فتى لم يمل بالنفس فيه عن العلا
إلى غيرها شيء سواه يميلها

والمعنى أن هذا الفتى الممدوح لا يميل بنفسه عن العلا شيء ، مهما كان (هذا الشيء) يميل بنفس سواه وينحرف بها من سبيل المعالي ...

(جرجا) محمود عزت عرفة

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ج ٢ ص ٣ .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر